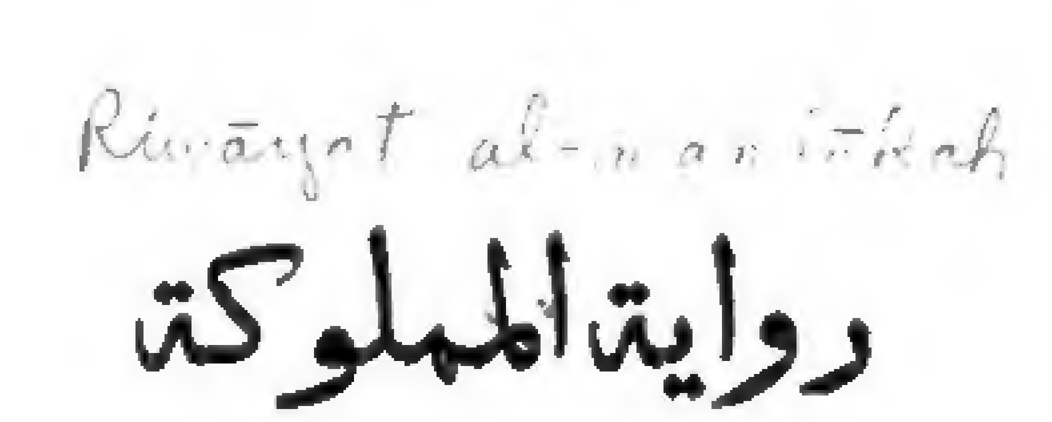
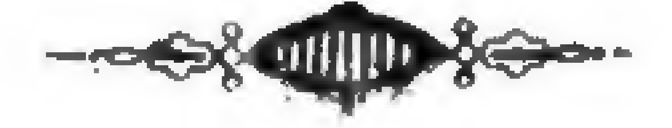


رواية المملوكة

— رواية واقعية تاريخية غرامية —

بقلم

الياس طنوس الحوّيك



طبعت علَى نفقة المدى لمنشئه نعوم مكرزل · نيويرك سنة ١٩١٤
Al-Hoda Publishing House, 81 West Street, New York, U. S. A.

المقدمة

رواية المملوكة من الروايات الجميلة المعنى الجليلة المغزى فقد جمعت من العبرة الزاجرة والحكمة البالغة . بما يحببها الى قرائها وسبكت في قالب غرامي تاريخي يستهوي قلوب عشاق الروايات التاريخية الادبية المفيدة

وقد طبعناها على نفقتنا جريا على خطتنا في نشر كل ما نرى فيه فائدة للقراء والمستفيدين غير حافلين بما نتكبده في هذا السبيل من العناء والمال لاننا لم نزاول الصحافة لافادة قرائنا وخدمة الشعب فقط بما نكتبه ونعربه بل لتنشيط اهل الادب وحملة الاقلام بمساعدتهم على بث افكارهم السديدة ومبادئهم القويمة ونشر كل ما نرى فيه فائدة ادبية لهذه الامة التي هي في اشد الاحتياج الى الكتب المفيدة سواء كانت روائية او تاريخية او ادبية ولذلك نقدم هذه الرواية الى كل اديب واديبة مكتفين بان يكون جزاؤنا رضى الشعب عن خدمتنا والله حسبنا ونعم الوكيل

نعوم مكرزل

الكرنك

١

في ٢٦ كانون الثاني سنة ١٧٩٩ طلعت الشمس ناشرة رداءها الاحمر على صفح النيل · فراق منظرها طليعة الجيش الفرنساوي السائر في مقدمته الجنرال ديزه · واستوقفها ذلك المشهد العجيب فقال ديزه · — لننتظر هنا كتائبنا الباقية فقد القيت الى اليوزباشي بارسفال مقاليد قيادة الخفراء الموكول اليهم امر المحافظة علينا والذود عنا

ولما كان الضابط الشاب المنتدب لهذه المهمة موشكا ان يعمل في شاكلتي جواده المهماز وينطلق برجال فصيلته المتطوعين اوقفه الجنرال باشارة لطيفة وقال له سرا بصوت متهدج تزيده اضطرابا مهابة تلك الساعة وبهاء النهر المتألق · ياعزيزي بارسفال لا تذهب الى منعطف كثيب من الكثبان لئلا يصيبك عيار ناري من بنادق اولئك اللئام فليس لي غنى عنك اذ انه لايوجد هنا سواك من يحسن فهم اللغة العربية والتكلم بها لاجل مراقبة مرشدينا الكذابين · فاقم رجالك في مراكزهم واسرع بالعودة الي

فتبسم الفارس تبسما يدل على عدم الاكتراث وابتعد بجنوده المشعثي الشمل وكانت ثمت جميع اصناف الجنود محتشدة ومعها جياد كوكبة الفرسان المخصصة لخدمة طلائع الجيش من الخيول السورية المطهمة التي غنموها من المماليك فتواروا عن الابصار مغذين في السير وراء كثبان الرمل

وسمع صوت بلهجة التهكم نظير لهجة ضواحي باريس يسأل قائلا · هل

نظرت غضب الاله الشمس حين كشفناللانظار ونحن نخبط خبط عشواء على عدوة النيل . فقال جاويش لم يكن بعد قد نبت عذاره . ان الشمس برزت بحلة قرمزية لانها كانت طالعة من جهة البحر الاحمر

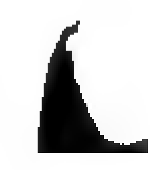
— اين تجد هذا البحر ؟ ... او ليس له ذكر في التاريخ المقدس ؟

— اليك جهته . فانها الى يسارنا ومنذ اليوم صرنا نعده في تاريخ فرنسا .

وكانت الشمس قد اندفعت بسرعة الى كبد السماء فلما ارتفعت في الفضاء صارت تحرق الرمال وتجفف وحول النهر وتصهر انقاض هيكل متبعثرة حيث كانت تلمع قبة مقام حقير مهجور وابتدأت كالسراب امام اعين العساكر الفرنساوية المضنكة تعبا . . وكانت جنود اخرى تصل مجهودة بيد انها مملوءة فرحا ونشاطا . فقال احدهم : ان لدينا يوما عصيبا . والحر يهددنا باعادة الكرة علينا عند الظهيرة . وقال اخر . ما لنا ولعلمائنا الافاضل الذين يسلقون في المعرّس حب السحرة واذناب الحيّات كأنها اقراص وسمك

ومرت بعض القذائف صافرة فوق تلك الجماهير المتألبة فهزمت طليعة جنود بارسفال عربانا كانوا يطلقون النار عليها وهم مطلقون سوقهم للريح .

ثم ان بارسفال جاء باسير وحشي الهيئة كان جواده قد قتل تحته فاضطر الى التسليم للقائد الفرنساوي بعد ان اخطأه العيار الناري الذي اطلقه عليه وجلس ديزه تحت مظلة عقدوها له من القصب وغصون الاشجار وقال . فلنستنطقه . فحل وثاق الاسير وسيق امام الجنرال ديزه وكان ريموند بارسفال والتراجمة وبعض سكان تلك الناحية يحاولون على غير طائل حل عقدة لسان ذلك الاسير الذي لم يكن للوعد او الوعيد ادنى تأثير به فقد كان يسارق النظر زعماء الفرنساويين ليقف على حركاتهم وسكناتهم كأنه يعالج



الدنو منهم والتهجم عليهم · فقال حاجب ديزه · تحذر ياسيدي الجنرال فان هذا الرجل ينظر اليك بمقلة السفاح الغدار وهو يترصد منك غفلة للانقضاض عليك والايقاع بك باول سلاح يقع تحت يده

— لا يهولنك شيء ياحضرة اليوزباشي فلنتذرع باخر ذريعة نستطيع بها حل عقدة لسانه · واذا اصر على الصمت قطعنا رأسه · وان هو اتحفنا ببعض الافادات نصبناه هدفا للرصاص كجندي وان هو هدانا الى الصراط المستقيم اطلقنا سراحه وعاملناه بالحسنى ·

وعرب بارسفال كلام الجنرال لذلك الاسير المتقدة عيناه غضبا · فتردد هذا الاخير وقال ·

لا تسعني هداية مثل هؤلاء الكلاب الى الطريق السوي · ولكن اذا وثقت بانهم لا يحزون رأسي بحت لهم بما اعلمه

— اذاً نقسم بذلك

— اتقسمون بالكتاب الكريم ؟

— نعم وبالشرف العسكري ·· تكلم

— ان مرادا وحسنا بك نازلان في مكان يبعد ساعتين عن هذا المكان وهو وراء الانقاض الكبيرة · ومعهما جنود جمعا شملهم بعد وقعة سديان · ولديهما ثلاثة الاف بعير تضرب في صدر الصحراء وهما ينتظران قدومكم غدا · فحين تبدون لانظارهما يعمدان الى الفرار بمن معهما · لاعتقادهما كل الاعتقاد بان طالعكم الميمون يقيكم من المكاره والشدائد ·

— ما هو اسم القرية النازل بها المماليك ؟

لا اعرفه ولكن يمكنني ان اقول انه لا يوجد سواها على عدوة الترعة

وفيها مآذنة يراها الناظر اليها عن بعد· هذا كل ما استطيع ان اقوله لكم

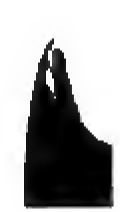
فترجم بارسفال كلام الاخير· وبعد قليل من الحين ساقه الجنود الى ما وراء كثبان الرمل ونصبوه غرضا لبنادقهم· وعلى اثر ذلك اقبل الحاجب كروازيه يحمل رسائل من القائد العام ويصحبه دينون المصور

وبينا ديزه وراب يفضان رسائل بونابرت احتشد الجنود وتهيأوا للاغارة على مراد وحسن في القرية التي لم يكونوا يبصرونها · وكان على الكثبان الحاجبة الجهة الجنوبية عن اعينهم رقباء بارسفال ودراغون بوفاتيه امير الآلاي يستشرفون اشياء كانت مستغرقة كل افكارهم فسأل بارسفال غوران معاونه قائلا له الى اي شيء يتطلعون ؟ فلو كانوا قد ابصروا جنود مراد لكانوا قد بادروا الى اشعارنا بذلك

ـ هناك ترى كل الغسكونيين المؤلفة منهم طليعة جيشنا وقد خلب عقولهم ذلك المشهد البديع

ـ ان لدينا امرا مهما لا مندوحة لنا عن اجرائه فسنزحف على شكل مربع متلزز الاضلاع ميممين النيل لننتهي في الصحراء بعد ساعة من الزمان تاركين الكثبان الرملية وراء ظهورنا · وتألف من فرقة بارسفال مربعان الواحد منهما تلو الاخر تتقدمهما رواد يبلغ عددهم مائتي رجل · وكانت المدفعية الخفيفة التي يقودها لاتورنري تسير في الوسط وهي تتهيأ لدق اوتادها في زوايا المربعين لتسد مسد دراغون الفصيلة الثامنة عشرة وفرقة ريموند

وكانت الجنود تسير بمشقة في الرمل محيطة باركان الحرب ومتوقعة هجوم المماليك عليها هجوما هائلا · وكان اولئك المماليك قد برزوا للانظار في مطمأن من الارض بين اكمتين دون ان يبوح بسر وجودهم في ذلك



المكان ادنى حركة او جلبة . ولم يكن الرواد الذين اوشكوا ان يحتجبوا عن الانظار يلمحون بادنى اشارة عن اقترابهم بل لبثوا يرصدون امامهم مشهدا لم يكن معظم الجنود قد ابصروه وهو مما يثير حب الاطلاع من رقدته ويلقي في فؤاد الجبان شجاعة لم يكن لها فيــه من مقر وقد صبت نفوسهم الى معرفة ما كان مختبئا وراء تلك الآكام الناتئة امام اعينهم في ذلك السهل الفسيح على ضفة النهر

وبلغ الجنود الى مكان يحيط بالنيل من احدى جهاته وتكتنف الجهة الاخرى الآكام المذكورة فحيوا بهتاف الفرح السهل المنبسط لدى جميع الانظار وكان ثمت انقاض متراكمة وهياكل متداعية واعمدة تغشيها الكتابات المصرية القديمة واثار مختلفة متبعثرة ومعابد مدنسة وقناطر هائلة ونواويس مفتوحة ويمكن القول بعبارة وجيزة ان المرء يشاهد في ذلك المكان مدينة نشر الموت جناحيه فوقها

ووقف اركــان حرب الجيش الفرنساوي امــام تلك المناظر المؤثرة فرفع الجنرال ديزه قبعتــه اجــلالا واكراما وصاح بملء فيه . سلام عليك ياطيبة ايتها المدينة العجيبة فقــد اكل الدهر عليك وشرب

فتأثر الجنود جميعهم عند سماعهم ذلك الكلام وتمثل لديهم الماضي بكل عظمته . فخفقت قلوبهم وسالت عيونهم وهبت نسيمات البسالة في صدورهم ونسوا كل مــا قاسوه من المشقــات والشدائد فصفقوا بايديهم وطبقوا الفضاء باصوات التكبير والتهليل



القتال

٣

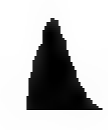
وكان اعرابي راكبا جوادايجري به كالريح فصاح قائلا . انظروا الى الفرنساويين . ووقف امام خيمةابرهيم فحملق المملوك بعينيـــه واصغى ليسمع الاصوات البعيدة ثم انه امتطى فرسادون ان يفوه بكلمة واحدة وانطلق به الى تلك الانقاض فتسنم سطح هيكل قديم دفن نصفه تحت التراب وجعل يجيل مقلتيه في ما حوله ثم قال . انـــامبصر كوكبة من الفرسان تشن الاغارة على القرية . فقال له احد العربان . هذا مراد ابن اخيك ومعه رجاله

وكان ذلك الاعرابي مضطربا من جراء روءيتـــه اولئك الفارين قادمين بسرعة البرق الى ابراهيم .

ولم تمض بضع دقائق حتى اقبل مملوك ارتدى ملابس فاخرة وتقلـــد اسلحة ثمينة تدل على سمو منزلتـــه في الجيش وقال . ان مرادا مجروح

وكان الرداء الابيض المتشح به ذلك الزعيم الشاب ملطخا بالدم وجواده مثخنا جراحا فامتقع وجه ابرهيم وكادت نفسه تطير شعاعا من جراء ما اصاب مرادا بيد ان هذا الاخير ترجل وحده وقـــال . لا تكتئب ياعم فالمسأ لـــة بسيطة لقد اصابتني قذيفة كسرت معصمي ولكن هذا الامر لا يثبطني عن تولي قيادة الفرسان بذاتي . وانت مقضي عليك بان تضمن سلامة كنوزنا وتقود جنودنا المحافظين الى الصحراء

وبينا هم يضمدون جرح مراد كان هذا الاخير مع شدة الالم الذي



يشعر بـه مهتما بامر الكنوز المذكورة وجميع الامتعة فقال لعمه . لما كان الافرنسيون يدورون حول المدينة البائدة اردت لهيهم فلجأت الى تدابير تنيلني وطري بهجومي عليهم ووضعي كمينا يقف لهم بالمرصاد ويشغلهم حينا من الزمان وهب اسعدتهم الاقدار وحالفهم النصر وجاءوا قريتنا ظافرين فتكون قد ابتعدت عنهم وامنت شرهم . واني استطيع المقاومة يومين اخرين في الموضع المحشودة فيه جنودي والمحصن تحصينا منيعا

— ولكن هؤلاء الفرنساويين لديهم مدافع

— لا بأس من ذلك فانا ساضمن نجاة رجالنا قبل الانقطاع عن اطلاق النار

— ووردة ابنتي ...

ولم يكد يلفظ اسم وردة حتى اشرق محيا تلك الفتاة فقالت بجرأة عظيمة . يا ابي كن ناعم البال من جهتي فان وردة بمأمن مـن نزول النوازل والمام الملمات لان الفرنساويين يحترمون الشيوخ والنساء فلا بد لهم من اقتفاء اثارنا ولو انتهينا الى اقصى الغيوم دون ان يعرجوا على هذه المرابع

— وانت يا ابني ...

— لا اخشى شيئا فان هم عثروا علي شفعت بي جراحي لديهم دون ان يعلموا شيئا من حقيقـة امري . ولا تحدثهم النفس البتة بان يستصحبوني معهم اسيرا في اثناء مسيرهم وايقادهم سعير الهيجاء مخافة ان يتيسر لي الفرار عند اول فرصة تبدو لي

— بناء عليه لا يمكنني ان اكل اليك امر العناية بوردة

فاتقدت عينا مراد وتوسل الى عمه الا ينصب كريمته هدفا لنبال القدر

اتكالا على احترام سلطان الفرنساويين للعذارى ولو كنّ حاملات الاسلحة لمقاتلته . وآلى على نفسه الا يفترق عنها واذا تزيا بزي فلاح كان اقل تعرضا من غيره لعقوبة العدو وكانا من السرب تحت سقف ابراهيم وفي كنفه وسمعت اصوات البنادق عن بعد فكان ذلك دليلا على اشتباك القتال بين الرواد الفرنساويين والمماليك الكامنين بين الانقاض . فقال مراد الجريح . ان عبدالله يتولى قيادة جنودنا المهاجين والكامنين وانا ابقى هنا للدفاع عن القرية

ولم يتردد ابراهيم بالمسير بموجب مشورة مراد ابن اخيه لعلمه ان تلك المشورة كان من باب سداد الرأي لانه لو سقطت في ايدي الفرنساويين الثلاثة الاف جمل الموقرة كنوز ابراهيم بك وحسن لحرموا جميع وسائل الدفاع ومحاربة جنود بونابرت ومات في قلوب مريديهم المصلصين الامل بالاثثار من الاعداء

وفي بضع دقائق القى ابراهيم على وردة ابنته بعض نصائح لم يلق له مندوحة عن ايداعها اياها وقال بلهجة شديدة والدموع تسيل على خديه . لم يبق في اليد حيلة فان ديزه نفسه يصلينا القتال وهو قد ابقى حتى الان على نسائنا وجرحانا وحين لا يبقى لديه سوى الفلاحين يأمر جنوده بوضع حد للنهب والسلب فانه يهمه قبل كل شيء استمالة قلوب المصريين اولئك الارقاء الاخساء الذين يتوهمهم — وقد ساء وهمه — اعزاء النفوس نظيرنا . ويحسن بك ايضا ان تكتم نسب وردة فان هم توهموها فلاحة بسيطة نجت من مخالب الهلاك واصابت شفقة من الغالبين

ثم ان ابراهيم ودع ابنته وابن اخيه مستخيرا الله وسار بالبعران وجنود

المحافظةيوءم الانحاء المنبسطةوراء الترع وبعد عبورهم هدموا المعابر لئلا يستفيد منها الفرنساويون بمرورهم عليها

وبقي لخدمة وردة ومراد بعض الخدام الامناء فسدوا مدخل القريـة وحصنوا بنوع خاص منزل ابراهيم الفخم الداخل البسيط الظاهر وجلس مراد مع ما كان يساوره من الحمى الشديـدة الوطأة عليه في مكان مرتفع يشرف على الموضع المتحاشدة فيه رجاله لردغارة الغزاة وجعل يصدر اوامره اليهم · وكانت طليعة جنود بارسفال تترامى بالقنابل والقذائف مع العربان المتشتتين بين الانقاض بيد ان معظم الجيش لم يكن بعد قد اصيب بضرر من النيران التي كان يطلقها عليه اولئك الرمـاة الذين لا يروى لهم غليل في الهيجاء ·

ولـم يتمكن الجنرال ديزه الابصعوبة عظيمة من ضبط حـدة العلماء الذين كانوا يصحبونـه والذين هتفواهتافا عاليا حين وقعت اعينهم على انقاض مدينة طيبة الذائعة الصيت · فقال له دينون ورفاقه · بعيشك يا حضرة القائد دعنا نصور ذلك التمثال المنصوب عند باب الهيكل

— غدا حين يتم التنقيب في جميع الانقاض فانا احاذر ان ادعكم هدفا لنيران بعض العربـان الكامنين وراء الاعمدة والصخور

— ربما نلقي حتفنا غدا

— فحينئذ يمكنكم ان تصوروه في الابدية

ولما وقف الجيش ليأخذ قسطه من الراحة عمد المصورون الى اخـذ الرسوم ووقف الجنود حولهم ليقوهم طائلة الردى· وبينا هم على تلك الحال واذا باحـد الخفراء يصيح · تحذروا فدونكم الاتراك

وللحال اسرع الجنود الى تأليف مربع واوشك القتال ان يشتبك بينهم

وبين المماليك الذين هجموا على نغمات موسيقاهم البربرية والحماسة قائدهم والاقدام مركبهم وهم مدججون باسلحة تنعكس عليها اشعة الشمس الباهرة ٠ وكانت جنود الفصيلة الحادية والستين واقفة في الصف والبنادق الى اكتافها تنتظر الامر باطلاق النار فقال الجنرال ديزه٠ ارموا النار وحين وصول المماليك كأنهم اعصار هائل كان الفرنساويون يطلقون عليهم القذائف من مدفعين كانا معهم ومن بنادقهم القوية الطلقات ٠ فجندلوا الصف الاول من اولئك المهاجمين ولكن الصف الثاني هجم يتقدمه عبدالله على رماة الفصيلة الحادية والعشرين فمزقهم تمزيقا واعمل السيوف بباقية رجال اليوزباشي فاليت ٠ وكان عبدالله متوهما انه توغل في مأزق تصعب عليه النجاة منه فثنى عنان جواده وهم بالفرار الا انه رجع باسرع من توهج البرق وانقض بسيفه على رايموند الذي لم يتكن متوقعا منه ذلك الهجوم ولكن احد رماة ساكروست طعن جواد عبدالله فسقط تحت فارسه وهوى عبدالله دون ان يتمكن من اصابة بارسفال باذى وخف لانقاذه عشرون من رجاله فاختطفوه من بين يدي اعدائه وساروا به الى تلك الانقاض حيث تواروا عن الابصار ٠ فالتفت بارسفال الى الرامي الذي خلصه وقال له ٠ شكرا لك على ما اوليتني من الصنيعة فسأكافئك على ذلك باهدائي اياك بندقية فاخرة بمثابة تذكار مني اليك لانقاذك اياي من الموت

— فعلت ما يجب علي فعله ولكن يسوءني ان يكون هذا المملوك قد فر من بين ايدينا سالما

— اني ريثما يتسنى لي اتمام وعدي لك اهبك سرج جواد المملوك واشتري منك بعشرة ذهبات الغدارتين المموهتين بالذهب

ـ يسرني ياسيدي اليوزباشي ان اقدمها لك

ـ اقتسم انت ورفاقك هذا الكيس المملوء ذهبا لان كل ما يغنمه الجنود من الاعداء فهو لهم

واقتسم الجرحى فيما بينهم الاسلاب الثمينة التي غادرها المماليك في ساحة القتال وغنم الفلاحون اموالا طائلة لان الفرنساويين لم يكونوا يبالون بالذهب والفضة

وكانت هجمة المماليك الاخيرة المصحوبة باطلاق النيران من البطاريات المحجوبة وراء الانقاض سببا للاضطراب في الجيش فخشعت الجنود القائمة في الوسط لدى القذائف المنصبة عليها لكن صوت ديزه اقال عثارها وانعشها فاندفعت كالسيل الجارف على المماليك تصحبها الميمنة والميسرة فهزمت عبدالله ورجاله ومزقت شملهم كل ممزق وصاح القائد كورو • هلموا بنا الى القرية

وكان الفرنساويون قد الفوا شكل مثلث فزحفوا على الواحة الحاجبة اشجار النخل المنازل فيها ما عدا مأذنة الجامع الرافعة رأسها تيها وعجبا • وكان جيش ديزه في تلك الشمس المحرقة وفي الرمال والاخربة قد ملاء الطرق خلفه بجثث الابطال المجاهدين جهاداحسنا لنيل الغلبة • فاستولوا على استحكامات ابراهيم وانتشروا في ذلك السهل فقال بارسفال لا نراهم ابدا من الان فصاعدا • وقد تم لنا فتح مصر العليا ولم يبق لدينا سوى انشاء المعاهد للمشترعين واصحاب الادارة

فقال الدكتور ماتورل • • لقد انجزنا اسهل الاعمال حتى الساعة وبقي علينا امر في منتهى الصعوبة وهو استمالة القلوب والفوز بالمستقبل

ـ اخطأت كبد الصواب • فانا اشعر في قلبي بالميل الى البشر والاشياء



ونحن هنا رسل السلام والحرية ولسوف ترى بعينيك الاشياء التي سنأتيها بزعامة ديزه وكلبر وبونابرت في هذه الاصقاع المنتشر الخراب في جميع جهاتها

فقال القائد وهو آت من خلفهم فلنملك في هذه الارض باسم الجمهورية الفرنساوية على قلوب ساكني هذه الواحة المطلقة من قيود العبودية وهيىء بالاشتراك مع حضرة الدكتور محلا لنزول جنودنا ريثما تنتهي الينا تعليمات من بونابرت

وكانت جميع المساكن مقفلة الابواب ومحصنة تحصينا متينا وقد ساد فيها السكون فطلب بارسفال من السكان ان يستسلموا فنبذوا طلبه ولكن الملازم غوران تمكن بلطفه وتحببه من حملهم على فتح باب الجامع فامن العلماء على ارواحهم وقال بارسفال للشيخ الاكبر ان دينكم شقيق ديننا ونحن نحترمه وندافع عنه من كل من يتعمد اهانته فقل للموءذن ان يصعد كجاري عادته الى المأذنة ويدعو المسلمين الى الصلاة

فدهش الشيخ من سماعه مثل ذلك الكلام وسكن روعه وبعد قليل من الحين زال رعب الاهلين عند روءيتهم لطف الفرنساويين فكانوا يتبادلون الاحاديث من وراء الابواب التي لم تكن تلبث ان تفتح ما عدا بيتا واحدا ظلت ابوابه ونوافذه مقفلة وهو بيت زعيم من الزعماء كان قد شخص الى الفيوم . فقال احدهم . يجري في ظني ان صاحب هذا البيت قد حداه اليأس الى تدبير مكيدة يغتال بها كل من يقدم على الاطلاع عليه فلنأت بادوات تمكننا من فتح الابواب ودخول البيت عنوة . فقال رايموند . ما لنا ولهذا الامر فالقائد يأبى ان نحفي في التنقيب في كل المساكن ما لم يطلق اصحابها النار علينا . فماذا نفعل باسرانا فلم يتقرر حتى الان

اطلاق النار بعد المعركة على الفارين اللاجئين الى الكهوف والمغاور وشقوق الارض

ـ نستطيع حل عقدة لسانهم

ـ بناء عليه فلننطلق معا الى مأوى اولئك البربر

وكان تحت ظلال اشجار النخل مسكن كبير فيه بعض مرام مربعة الشكل سدت بزجاج مختلف الالوان . فصعد بارسفال الدرج وصعد وراءه بعض رجاله فقرع الباب بقبضة سيفه وطلب الضيافة من سكان ذلك المنزل فبقي نداءوه بغير جواب ولكنه سمع حركة في الداخل فقال للدكتور مانورل . يسمعوننا من الداخل .

ـ فتحت مرماة صغيرة فوق الرتاج

ـ ومرماة اخرى الى يسارنا ..

وقال اثنان من رجال بارسفال . تحذر ياحضرة اليوزباشي فمن هذه المرماة برزت بندقية طويلة وصوبت عليك .

فحال روبين الرامي بين الضابط والبندقية مبتغيا تحويلها عنه . وقبل ان يتمكن من القبض عليها بيده خرج منها لهيب اعمى باصرتيه تلاه طلق دوى في كل انحاء القرية . فهوى الرامي المسكين الى الحضيض وقد اصابته رصاصة في صدره

زردة



وهجم الفرنساويون على الباب فكسروه بالفؤوس وكعاب بنادقهم ودخل منه ثلاثون جنديا وفي افواههم صياح الانتقام والتهديد بالموت. ولكنهم ما لبثوا ان صمتوا فجأة وارتدوا الى الوراء لان امرأة كانت تسد الطريق في وجوههم وهي وحيدة وليس بيدها ادنى سلاح وكانت هيئتها الجليلة وجمالها الباهر وشجاعتها العظيمة تدل على شرف نصابها وسمو منزلتها . وقد تجلببت بوشاحها الاسود وارسلت النقاب على محياها شأن غيرها من بنات امتها وكانت يدها المبسوطة طويلة سبطة البنان وناعمة البشرة لا تشبه ايدي النساء المصريات. ولها عينان براقتان سوداوان ينبعث منهما شرر الذكاء ووجه مستدير كأنه القمر وبشرة ناصعة البياض

ونقل ماتورل روبين وهو فاقد الحس وكان ما اصاب روبين قد اثر ببارسفال تأثيرا شديدا فالتفت الى تلك المرأة وقال لها . أ أنت اطلقت النار علينا .

— نعم

وكان صوتها الرخيم الاجش مضطربا من جراء تلك الحال . فصاح احد رجال بارسفال والحنق بالغ منه . فلتقتل .

ولم ترتفع ادنى يد للفتك بها . فقال لها بارسفال . كذبت فلست انتِ القاتلة . ثم انه التفت الى رجاله وقال لهم بالغوا في التفتيش في البيت



فلعلكم تعثرون على قاتل روبين · فهذه المرأة تعترف بانها القاتلة طمعا بتخليص القاتل الحقيقي

ولما هم احد الجنود باجتياز عتبة الباب اشرعت في وجهه مدية وقالت له · حذار من الدخول

فانتزع منها الجندي المدية وقال لها بتهكم مقرون باللطف · هلا سمحت لي ايتها النحلة الصغيرة بانتزاع حمتك منك

فانقضت عليه تلك الفتاة انقضاض اللبوءة الفاقدة شبلها فاضطر الى الدفاع عن نفسه دفاعا جديا فامسك قناع الفتاة فتمزق ذلك النسيج الصفيق وبان من تحته وجه الفتاة المصرية وقد علته غيوم الغضب والحياء · وللحال علت اصوات الدهش من الفرنساويين عند رؤيتهم ذلك الوجه الصبيح فانهم لم يكونوا قد تعودوا ان يشاهدوا تحت براقع الفلاحات سوى وجوه قبيحة · فلبث رجال رايموند مبهوتين ومتعجبين من ذلك الجمال الفتان الذي بدا عرضا لانظارهم · وكانت في خالي الحين ابنة ابراهيم محتجبة دائما في حجرتها والناس يعرفونها بالسمع من الاحاديث التي كانت جواريها يروينها عنها · وتذمر الفلاحون المنضمون الى الفاتحين عند معاينتهم جمال تلك الغانية وما صارت اليه من سوء الحال · فكانت تلقي على المغتصبين نظرات التحذر ذاهلة عن ستر وجهها بيديها · فقال لها بعض الشيوخ الذين شككهم ذلك المنظر · افتكري بابيك وادخلي الى منزلك

فترددت في الدخول وكان الجنود قد غشوا البيت فارادت ان تهديهم وتتقدمهم الى المكان المغتصب فامسك احدهم بيدها مريدا ثني عزمها عن الذهاب فالتفتت الى سواه متوسلة اليه بان يأخذ بنصرها فاشاح بوجهه عنها

فحينئذ رجت الفتاة من رايموند ان يمهد لها سبيل الفرار اذ اصبحت بدون مدافع واصبح الخوف ملء اهابها • فخانتها كل قوتها وتهيجت جميع اعصابها واغرورقت عيناها بالدموع وجعلت تلتمس لنفسها من بارسفال عذرا على قتلها الفرنساوي بغير تعمد • وكان بارسفال ينظر اليها ويسمع كلامها وهو لا يفهم شيئا منه والاضطراب بالغ منه فسألها قائلا ما اسمك

فاجابته • اسمي وردة • فتأثر بارسفال من كلامها كل التأثر وسألها ان تعطيه جوابا ملائما لرغبته بقوله لها • صرحي لي بانك لم تقتلي الجندي • فقالت • انا قتلته انتقاما لمن قتلتموهم من رجالنا ولفرار ابي وعار المماليك

— ولكننا لم نفعل بك شيئا وانت تعلمين ولا بد من ان يكونوا قد قالوا لك باننا لا نسوق ادنى اذية الى العذارى المماثلات لك مع ما هن عليه من القسوة والتمرد والعناد

— بناء عليه انا استطيع الانطلاق فهل تعفو عني • • •

وبدت منها حركة تشبه حركة الاولاد وهزة فرح تحاكي انتفاض عصفور اطلق سراحه • فقال رايموند بتأسف حقيقي • لا استطيع هذا الامر فيجب عليك ان تمثلي امام القائد للاستنطاق وهو لا يقدم الى هنا المكان قبل ساعة من الزمان لان جنودنا دخلت قريتكم منذ حين قريب • وجاء بعض رجال بارسفال يقولون له • لقد وجدنا الرامي الملعون ولقد اصبت بقولك ان هذه الفتاة لم تعترف امامنا بانها القاتلة الا لتنقذه من غائلة الردى

— ان عملها الذي اتته يعتبر ولا مراء شريفا فمن هو اذن ذلك المرء الذي احبت تضحية نفسها لاجله •

— انظر اليه بذاتك فقد جاءوا به

ــ وهل اصيب بجراح

ــ لا ... لا اعلم شيئا من هذه الجهة ....

وجاؤوا بمراد بعد ان اساؤوا معاملته وقد وجدوا ذلك المملوك المنهوك القوى من فرط ما سال منه من الدماء منزويا في المنزل المهجور لانه ابى الفرار رغبة في البقاء في ذلك المكان لاجل المحافظة على وردة . فلم يجاوب اليوزباشي بشيء على الاسئلة التي القاها عليه . وكان يلقي نظرات مضطربة على محيا تلك الفتاة المقنع وقد هبت في صدره رياح الحنق . فهاج هائج رايموند عليه وقال . ان صمت هذا الشاب ووجوده وحده في البيت لا يبقيان لدينا شكا بانه هو قاتل روبين فخذوه وانصبوه هدفا لبنادقكم .

فقالت وردة وقد هاجت عواطف الحصيان في فؤادها امام الاسير المبدي تصلفا واحتقارا . الا ترون انه كان مجروحا وغير قادر على حمل السلاح

فقال الجاويش وقد ساءه عدم اثبات براءة الفتاة . اجل ياسيدي اليوزباشي ان كلام هذه الفتاة هو عين الصواب

فقال مراد لابنة عمه . اصمتي فالموت يروقني

ــ ولماذا

ــ لانك حسرت اللثام عن وجهك امام هؤلاء الكلاب الملاعين وقد جررت بفعلك هذا عارا علينا طرًّا

ففار فائر الفتاة المصرية عند سماعها كلام ابن عمها المبني على الظلم واساءة الظن ونظرت الى بارسفال الذي لم يتمكن من فهم ما دار بينها وبين ذلك الشاب من الحديث وحاولت مرة اخرى ان تلصق التهمة بها . فقال لها رايموند بلهجة جافية . ماذا تهمك براءة هذا الجريح . وفي اعتقادي انه بريء من

تهمة القتل ولما لم نكن نحن قدتعودناان نجهز على الجرحى جريا على عادة ذويك العنيفة فيمكنك ان تبتهجي بنجاته من الردى ولكن لا تعالجي اقناعي باتيانك مثل هذه الجناية الفظيعة فانت الحديثة السن الجميلة الخلق والخلق لا يماثلك قلبك الكريم على الفتك بضيف يحاذر ان يمسك باذى

فتجلدت وردة كمن يغالب عواطفه وقالت بشدة . اني ابغضكم بغضا .

وفي ذلك الحين جاء القائد ديزه فتنحى بارسفال جانبا وقال . هوذا القائد فانه يبرز عليك الحكم بنفسه

ولما وقف القائد على حقيقة الامر وفهم من اليوزباشي ما كان قد جرى التفت الى وردة وقال لها . لقد اصدرت الاوامر الى جنودي بالرفق برجال ابيك ابراهيم اينما عثروا عليهم ولا يخفى عليك انا نحن عالمون بحقيقة نسبك ولا نريد بوجه من الوجوه ان ننتقم لانفسنا منك . اتيت اليكم والثقة ملء فوءادي مستصحبا رجالي العزل . وانت تعلمين حسنا انا اتيناكم بالخلاص والسلام وتحرينا صيانة دينكم واعراضكم ومقتنياتكم وبعد ذلك كله تهبين انت ايتها الفتاة المجبولة من طين اللطف والجمال وتأخذين بندقية جريح لتقتلينا بها كما يقتل اللصوص والسفاحون وقطاع الطرق فاعلمي ياحضرة الانسة ان الفرنساويين لا يقاتلون النساء وسيكون عفونا عنك عقابا لك . ولسوف تنتقم من اخوانك وابناء عشيرتك للجندي الذي قتلتموه غدرا ولكن سيكون ذلك الانتقام وجها لوجه في ساحة القتال ... كوني بامان وطمأنينة في ظل هذا المسكن الذي نحاذر ان نجتاز عتبته لانها تلطخت بدم افرنسي . استصحبي معك هذا الجريح المجهول عندنا اسمه ومقامه واومل انكما تستطيعان كلاكما ان تعرفانا حق المعرفة في المستقبل وان تعتبرانا كرام النفوس

اباة الضيم نظير كما

فكان بكلامه تأثير عظيم بالحضور لان شفقة سلطان الفرنساويين قد ملاءت جميع القلوب دهشا مقرونا بالخوف والرهبة

ورجع مراد وورده الى مسكنهما والخزي مستول عليهما واقفلا الباب وراءهما ليخبئا عن الابصار ما كان قد ساورهما من الخجل . وكانت عزة نفس ذلك الظافر قد ساقت الاضطراب الى ذينك الشخصين فتراءى لهما ان تصورات جديدة بدأت تنتابهما وفي ابان ذلك الحين سمع صوت ناقوس عند منعطف الشارع فارتد المصريون الى الوراء امام طبل صغير من طبول الفرقة الحادية والستين كانوا يسيرون به امام راهب قبطي . فقال احد الجنود ان هذا الراهب يحمل القربان المقدس زادا اخيرا لروبين المنكود الحظ . فانحنوا جميعهم باحترام امام الراهب الحامل القربان المقدس عند مروره امامهم .

فقال احد الجنود . انا وضعناه خلف هذا البيت عند اسفل مأذنة الجامع فقد اراد ان يلفظ نفسه الاخير في الفضاء

— هلم بنا ننطلق لرؤيته .

وسار اليوزباشي يصحبه غوران ورفاق القتيل الى حيث كان روبين ملقى على الحضيض يجود بنفسه وانحنى بارسفال فوقه ففتح روبين عينيه اللتين كانت يد الموت تعالج اغماضهما وقال . اليوزباشي ... نجا ... .

وبانت على وجهه علامات فرح مؤلم فقال له بارسفال . نعم يا عزيزي روبين لقد نجوت بك يا اخي . ايمكنني ان اساعدك بشيء من الاشياء

— آه يا سيدي اليوزباشي ... عند رجوعكم الى فرنسا .. هناك ...

اذهب الى ذوي قرباي في قريتي ...

— اعدك بذلك اذا ساعدني الحظ بالرجوع . فنحن محصورون هنا في البلاد التي فتحناها ... فالانكليز يسدون البحر في وجوهنا ... ولكنْ هل يقدر لنا ان نشاهد فرنسا مرة اخرى ...

— نعم ستشاهدونها ... انا اعلم ذلك ... وانا ارى ...

وكأن نورا نبويا اضاء في عيني المحتضر فجعل يحذي بصوت يشبه صوت الوالد ... وحول رفاقه الجنود انظارهم عنه وجعلوا يبكون . وكان من جملة هذيان روبين ما يأتي .

هناك في جبالنا وفي اودية لاربوست ... ارى المرج يغشيه الثلج ... والهري ... وقطعان الغنم ... اظلمت السماء فوق استوس وهبت ... الريح على الاشجار في غارين ... وقرس البرد ... وحضرت يداي ... وتوفى ابي ... وبقيت والدتي وحدها تبكي منتحبة ....

وكان صوت ناقوس المحتضرين يدنو شيئا فشيئا ... فنهض المائت قليلا بين ذراعي رايموند وقال . اسمعوا ... القطعان فوق ... صوت الجلاجل ... ولكن البرد شديد ... الشتاء ... الموت ...

فقال احد الجنود بصوت كالرعد القاصف . تبا لها من حالة تدمي الفؤاد ... ليس في اليد حيلة ... فياليت القتال يتيسر لنا الان للانتقام لهذا الاخ الجبيب من اعدائنا الملاعين

فقال الراهب . صه يارجل . دع هذا الشاب يموت بسلام ... وشاركني بالصلاة لاجله .

وفي خلال ذلك الحين سمع من اعلى المأذنة صوت المؤذن يدعو الناس

الى اقامة الصلاة فاستاء رفاق روبين من ذلك الامر وقال غوران · هـــذا هو المؤذن · وقال غيره · سننتقم منه عن سواه فهاء اننذا انزله باطلاقي عليه عيارا ناريا · فقال الراهب · اياك ان تفعل هذا الامر ياهذا · فحينئذ صاح عدة جنود من جهات مختلفة قائلين · فليصمت

فقال الراهب بلطف · ولماذا ·

— لانه يصلي لغير الاله الذي نصلي له

— لا يوجد سوى اله واحد

فسقطت كلمات الراهب كالبلسم المسكن على تلك الانفس الحزينة · وكانت الصلاتان ترتفعان الى العلاء في وقت واحد · والمحتضر في اثناء تلك الساعة يدنو من الابدية وهو يسمع باذنيـــه الصلاتين متمازجتين ويتبسم للرؤيا التي تجلت له · وكان محياه قد احمر وغير النزع سحنته واضطرمت الحمى فكادت تحرق شفتيه فقال · اسقوني · فاسرع رفاقه لتلبية طلبه الا ان البئر كانت بعيدة والنيل ابعد وربما مات قبل رجوع من يمضي لاستقاء الماء وكان يكرر قوله · اسقوني · فللحال فتحت نافذة في الجدار المجاور لـــه وخرجت منها امرأة حاسرة النقـــاب تحمل كوزا من الماء العذب فلما شاهد الجنود تلك الفتاة الكئيبة فسحوا لها المجال للمرور وانقبضت صدورهم من النفور والتعجب فان تلك الفتاة كانت وردة بعينها وقد خفت لاجابـــة طلب المحتضر وبعبارة اخرى كانت القاتلـــة المقبلة لمساعدة قتيلها · فقال احد الجنود أ الى هذا الحد تصل القحة بهذه الفتاة

فقال بارسفال وهو اشد تأثرا من سواه · انها تكفر

— ولكن اذا عرفها ···

— انى يكون ذلك وهو لم ينظرها ابدا في ماضي حياته ·

ولما انطفأت جذوة العطش في فؤاد روبين فتح عينيه فوقعتا على وجه تلك الفتاة المنحنية بفوقه وعلائم الحزن بادية على جبينها ··· وجرت ابتسامة لطيفة على شفتيه وتراءت لـه اشباح مختلفة فخيل اليه انه في منزلـه بين ذراعي والدته فقال · شكرا لك يا اماه

ثم انه حنى رأسه ففاضت روحه بين يدي رايموند الفاصل جسمه بينهما فنظر كـل منهما الى الاخر من وراء دموعه المتناثرة

على ضفة النيل

٤

وكان سكون الليل مخيما على تلك الانقاض والقرية والهلال الضئيل يرسل ضوءه على النيل على ما يحيط به من مضارب الجنود في معرسهم · وحدث ان جنديين من فصيلة بارسفال خرجا في جوف الليل خفية ليستحما في النيل · فلما درى بارسفال بامرهما خاف ان يبيتا فريسة للتماسيح التي يكثر وجودها في تلك الانحاء واستشاط غضبا على الجاويش الذي لم يمنعهما عن الخروج · وبينا هو يرغي ويزبد ويبرق ويرعد ويتوعد ذلك الجاويش بانزال العقوبة به واذا باحد الجنود يصيح قائلا · ها قد اقبل علينا رفيقانا اللذان خشينا فقدهما · ووصل ذانك الجنديان الى المعرّس وهما ينشدان انشودة توقظ الحماسة من غفلتها · فانتهرهما بارسفال وقال لهما · ستلقيان غدا في السجن وتمنعان عن القتال اسبوعا كاملا · فاطرقا الى الارض دون ان يفوها بكلمة



وبعد برهة هنيهة من الزمان فتح عينيه · ثم نهض فذهب مكانت تلك
الفتاة قد لبثت جاثية · فقال له رايموند الا · وآية فتاة تعني بهذا الكلام

— في تلك الجهة من الجزيرة سقطت على ضفة النهر صريعة وهي اقرب
من فم البحر وصلت الى المكان الذي وجدتها فيه الصريع ونحن خلف تلك الفتاة
وصلت في الحين ساعته فكان ثمت تمساح هائل يحاول جذب الفتاة نحوه
اليه وهو عاض باسنانه طرف ثوبها وقد سقطت الى الارض وخانتها قواها

— اين هي الآن

— هناك في مكان معين وقد تركتها تطلب مددا

— فلنسرع لانقاذها

— لا حاجة الى ذلك يا مسيو ليوزيشي فالتمساح قد غاص في قعر
الماء بعد ان صفعته صفعة قوية كانت القاضية

وسار بهم ليوزيشي الى الجهة التي دلهم عليها · وفيما هم سائرون قال
لهم · من هي هذه المرأة

— ليت ترك التمساح يفترسها فكنا على الاقل نظرنا باعيننا روبين
منتقما له

فقال رايموند وهو يسرع موسع خطاه · وهل هي الفتاة المتهمة بقتل
روبين · الم تأته بماء ليشرب عند نزعه فلعمري ان مثل هذا العمل لا يدل على
لوم في الاصل ولا على خساسة في الاخلاق

وحين انتهوا الى المحل الذي كانت فيه وردة وجدوها ملقاة على
الارض مغشيا عليها وهي ملتفة بردائها ووجهها مستتر بقناعها · وكان الناظر
اليها يظنها جثة هامدة · فجثا بارسفال امامها وهو يرتجف خوفا عليها وجس

بيده المضطربة قلب الفتاة ليرى هل هي باقية في قيد الحياة ام قضت نحبها فصاح بصوت الفرح قائلا . انها لا تزال حية فارجعا الى المعرّس

اتكل الينا حراسة الامتعة

— لا . فقد نسيت ما قلته لكما قبلا

فضغط كل منهما يد رفيقه ووراء تلك الضغطة ما وراءها من المعاني وسارا واحدهما يقول للاخر . لنترك يوزباشينا وحده مع حبيبته فيخلو لهما الجو

— اتنسى ما بينه وبينها من الاختلاف في الجنسية والمذهب

— الم تكن من غير مذهبك تلك الفتاة التي حدثتني غير مرة عما جرى بينك وبينها حين كنا في القاهرة ...

ثم انهما قهقها في الضحك وسارا في طريقهما . فقال احدهما . انا اعرف بادي اليوزباشي وخافيه ولو كنت في موقفه لما ترددت دقيقة واحدة في تغيير مذهبي .

— ليس في ذلك الامر شيء يؤاخذ عليه

— ان الاله الذي نعبده والاله الذي يعبدونه هو اله واحد

— اصبت بقولك فالراهب ذاته حقق لنا هذا الامر

— والمؤذن ايضا اكده لنا فكلاهما متفق عليه

وكان بارسفال خائفا من طول بقاء وردة مغشيا عليها ولم يكن يجسر ان يرفع نقابها عن وجهها مخافة اغضابها عند افاقتها . فالتفت حوله فرأى كوز الماء فقال في نفسه . لم يبق لدي الان ارش بضع قطرات من الماء على جبينها لتنتعش . قال هذا وتناول الكوز ثم كشف النقاب عن محياها وصب عليه

بضع قطرات من الماء فتحركت وفتحت عينيها . ولما ثاب اليها الروع شيئاً تذكرت ما اصابها فارتعدت فرائصها ووقت ما شاهدت بارسفال الى جانبها توردت وجنتاها من فرط الحياء عندروءيتها ذاتها معه في محل منفرد عن الناس . فارخت القناع على وجهها وارادت الفرار . ثم قالت له .

لماذا تجرعني كوءوس المهانة

— وكيف اهنتك

— بتدنيسك جبيني بالحاظك

— انك جائرة في حكمك ياوردة فانا ورجالي مددنا اليك سواعد المساعدة وانقذناك من التمساح

— نعم ان ذلك الوحش الهائل .

— اطردي عنك الهلع فانه قد مات

— طارت نفسي شعاعا من روءيته فهويت على الحضيض لا اعي شيئا ولم اعد اعلم ماذا جرى بعد ذلك

وكان الحنق يغلي في صدرها حين علمت انها لم تبق حية ترزق الا بفضل الفرنساويين الذين انقذوها من ذلك التمساح

ثم ان رايموند سألها قائلا

— ماذا كنت تفعلين هنا .

— لا يمكنني الجواب على سوءالك

— فلتكن مشيئتك

— كنت وحدي وكان الخدام قد تركوني ولم يكن لدي قطرة من الماء

— اعلم انك سكبت ما كان لديك من الماء لتسقي الجندي المسكين الذي قتلته ٠

فاضطربت وقالت ٠ وجريحي في حالة تنذر بالخطر وهو عطشان ايضا

— ولكن بئر القرية ٠٠٠

— ان جنودكم مخيمون حوله٠ وفضلا عن ذلك فانا لم اكن اجد لي بدا من المجيء الى النيل

— ولماذا

— لان النيل المقدس يطهر وقد كانت اعينكم دنست وجهي ٠٠ فالله لم يرض بذلك بل نبذني عنه ٠٠٠٠

— اتريدين ان افوض الى اطبائي امر معالجة جريحك

— لا لانه يؤثر الموت الف مرة على الشفاء على ايدي اصحابك

— واذا امرته بذلك ٠٠٠ فيلوح لي انك كثيرة الاهتمام به ٠٠٠ فهو ولا مرا٠ عزيز جدا لديك ٠

فالتقت عين الفتاة النجلاء بعين رايموند وقد فهمت من لهجته انه يقاسي الالم من ظنونه فاستاءت وقالت٠ ان الجريح ابن عمي وهو يدعى مرادا

— اخطيبك هو

— لا اعلم فكل شيء في هذا الصدد منوط بارادة ابي

وكان كل ما يعتقده الشرقيون في القضاء والقدر منطويا تحت عبارة تلك الفتاة فتأثر بارسفال من كلامها تأثرا اجرى الدمع من مقلتيه وتطلع بغوران الذي لم يكن يفهم ما هو دائر من الحديث بينه وبين وردة لجهله اللغة العربيــة وكان يسوءه وجوده في ذلــك المكان بين ذينــك الشخصين



المتحاورين بلغة لا يفهمها • وكان انتا ترقد بلغ من بارسفال ومما زاده تهيجا حرارة تلك الليلة • فلم يعد يقوى على كتمان ما يساور فؤاده من الغرام والهيام واعترف بحبه الشديد لوردة وعلم سبب اضطرابه عند مسه صدرها وتصوره ما كان محجوبا وراء ذلك الازار وتحت ذلك القنـاع من المحاسن والجمال• اجل انه كثيرا ما ظفر بالاعداء في ساحة القتال وغنم منهم الاسلاب واصبح لا يبالي بقدوم الموت الذي كان يتوعده كل ساعة بيد انه لم يعـد الان يفوق رفاقه بشيء من الاشياء لان العشق تيمه وثبت لديه هذا المساء ان افضلية القوة من خصائص القلوب غير الثابتة وبدا له انه لم تكن نفس بشرية اشد قلقا من نفس ابنة ابراهيم• فهي وحدها مرتكبة جريمة القتل • وهي التي نجت من طائلة العقاب انتقاما ومن غائلة الموت عرضا نشبت في احبولة نصبتها لها شبلتها واهواءها ولذلك عقد عروة عزمه على استعبادها• فكل افكاره البشرية وكل احلامه الفلسفية هبت هبوب النار من سنة الكرى اجابة لنداء رغائبه الحارة فتجرأ على اعطاء غوران امرا مموها كان يحمر وجهه خجلا من اعطائه اياه قبل تلك الدقيقة بساعة من الزمان •

قال لمعاونه • ياغوران ان هذه البنية تدلني على فرض يقضي علي اتمامه ولذا فانا اكل اليك امر قضائه في ابان رجوعي معها الى القرية حين تثوب اليها قواها الفارة منها • اسرع الى ماتورل وايقظه واذهب به الى الجريح الذي اساء رجالنا معاملتـه ظلما فهو يقاسي الاما مبرحة • اسقوه وضمدوا جراحه وبعد مدة قصيرة اوافيكم

فلبى غوران الامر وسار مستاء من الحجة التي لجأ اليها رئيسه لابعاده • ولم يكد يبتعد عنه حتى ناداه قائلا • لا تقولوا لمراد ان اخته كادت تغرق في

النهر بل قولوا له انها جاءت الينا تطلب مساعدتنا ·

ومضى غوران متواريا وراء ستار الظلام وعادت وردة تنظر بدهش الى بارسفال · فسكن روعها بقوله لها · سيعود الينا بعد هنيهة من الزمان وحين تأخذين قسطك من الراحة ننطلق من هذا المكان

— ومراد الذي ينتظرني ···

— نأخذك اليه

— ارجو منك ان لا تأخذني انت اليه

— ولماذا لا آخذك انا اليه

— لانه يبغضك اكثر من سواك

— وما هو سبب بغضه الشديد لي

— يظن ··· وقد ابصر ··· وهو يعلم ··· قالت وردة بصوت متهدج وقد توردت وجنتاها · فقبض بارسفال بيديه على يدي الفتاة التي عالجت الافلات منه دون ان تبدي مقاومة جدية وقال لها · وماذا يعلم ·

ولبث ينتظر جواب الفتاة وصدره يخفق خفوقا · فترددت في بدء الامر في الكلام وارادت الصمت او الكذب الا ان عيني الضابط كانتا تتقدان نارا اضطرتاها الى الكلام فقالت · هو يعلم انك تظنني حسناء ولذلك فهو خائف ···

— نعم انت حسناء ياوردة وانا احبك

فذعرت الفتاة من شدة بهيج الضابط وقالت له · هلم بنا نغادر هذا المكان

— لم يحن بعد وقت مغادرتنا له ··· ما بالك مذعورة ··· انا لا اريد بك سوءا فقد انقذتك من جنودنا الذين كانوا يريدون الانتقام منك وليس



لي بغية في هذه الدنيا الا ان تحبني

فجمدت الفتاة مقهورة عند سماع كلمات ريموند الاخيرة وقالت بدهشة

. هذا الامر لا يمكن حدوثه

فقال لها ريموند بلهجة تقرب من لهجة التهديد . ذري هذا الكلام جانبا

فقد عشقتك ولا افلتك من قبضة يدي

انت مخطئ في ظنك فلا يثنيني شيء عن البطش بك

— انت .

— نعم انا ... وان كنت قد نجوت من غضبي فلا اخالك هذه المرة

— وهل خلصتني قبلا ... حيث كان زوجك مسكين حائلا بيني وبين

بندقيتك وهل كنت تقصدين انقاذي

فقالت الفتاة بصوت منخفض . نعم

— وما هو السبب

— لاني رأيتك من وراء النافذة امام رجالك . فقلت في نفسي هذا

هو الزعيم ... واذ هجم جنودك على مسكني شعرت باني سقطت في ايديهم

واني صرت رقيقة لـك ... فحينئذ تحركت في فؤادي عاطفة القلق لك

واردت هلاكك

وكانت تتكلم بصوت متهدج لان كل انفة جنسها وغابر مجده وبغضه

للفاتحين تجسمت في مقالها . فجعل رايموند يتسائل مذعورا عما اذا كانت

صادقة في كلامها بيد تلك الفتاة لما شاهدت الكآبـة منتشرة على محيا

ذلك الشاب حنت رأسها وقالت . عفوا

— يابنية لا تعرفين قراءة ما هو مكتوب في فؤادك ... لقد قلت

في ساعة عينتها الاقدار وبناء عليه فيجب عليك ان تحبيني على رغم منك ......

— اني لا استطيع ان احب عيسوياً

— ما لك وللعيسوي احبي انساناً .. اصغي لي ياوردة فتفهمي ما سالقيه عليك من الكلام

وافاض في الكلام عن حقيقة حبه لها بعبارات شعرية كان قد تعلمها من تصفحه دواوين بعض الشعراء ونم باسرار فؤاده لها

ولما اعمل الروية في حالة تلك الفتاة زال ما كان قد هاج في خاطره من التصميم على اخضاعها لرغائبه عنوة فان طهارة وردة دمثت اخلاقه فعاد الى حالته الاولى من التأمل والتفكير

فدهشت الفتاة المصرية من تغير لهجته معها دون ان تدرك شيئاً مما كان يدبره لاجلها وجعلت تنظر اليه بمقلة الحب ومع ذلك بقيت فيها بقية من ذلك الذعر . ولم تدر سبب صيرورة ذلك الفتى اطوع لها من بنانها فانها اصبحت سيدة له . فقال لها رايموند انا اسعى لنيل قيادة الجنود النازلين في هذه البقعة ليتسنى لي البقاء دائماً على مقربة منك

— غدا ننطلق الى مصر السفلى لاجئين الى نسيب من انسباء والدي اعد لنا مأوى في القاهرة

— عديني ياوردة انك ترضين بان امضي لموافاتك حيث تكونين

— ايمكنني ان اعلم شيئاً مما ساصير اليه ... لا استطيع الخروج ..

— ما هو اسم هذا النسيب ...

— اسمه منصور وهو حاجب ابراهيم بك شيخ البلد

وكنت قد باحت له بذلك انسر بغير تردد . فهل كانت تبتغي لقيا بارسفال في وقت قريب ... وكان بارسفال مؤملا هذا الامر ولكنه ماعتم ان اكتأب عند مرور غيمة شك في جنانه فان هذا الظافر الذي كان في ماضي الحين متجرفا اصبح بمجاور تمثلك الفتاة وقربه منها وديعا كالحمل . فقال لها . اسمعي ياوردة . لا ادري هل تنطقين بالحقيقة ام لا ولكن ان انت خدعتني بحثت في مصر كلها عنك لكي اجدك ... انا لا استطيع الحياة بدونك . لقد اخذتك بميني منذ بضع ساعات ولكن حياتي الحقيقية لا تبتدىء الا من ذلك الحين المفجع والسار في وقت واحد . اكشفي القناع عن وجهك مرة اخرى ودعيني اعبدك نظير الاهة جديدة في مذهبي

— لا ... لا ينبغي لي ان افعل هذا الامر مرة اخرى ... لئلا اصير مرذولة ما دمت في قيد الحياة

— ساعلمك احتقار الخزعبلات التي لا تليق بجمالك الفتان وبنفسك الصغيرة الطاهرة

— لا افهم معنى كلامك واخاف من شدة تهيجك

— لست متهيجا ياوردة ... فحدة كلامي تدل على دهشي من جمالك الباهر فلا تخافي شيئا في كنفي

— الا يعود ضابطك ...

— ساصحبك بذاتي الى بيتك .

— بعيشك لا تفعل هذا الامر فان مرادا يقتلك

— لا بد ان يكون لمراد هذا بعض حقوق عليك تجعلك تخافينه الى هذه الدرجة

— ان ابي وكل اليه العناية بي

فقال بارسفال بحدة وهو يحرق الارم · فليحذر · وان هو توعدك القيته في السجن ليقضي فيه بقية ايامه

ولم يكد يفوه بهذا الكلام حتى ندم عليه لانه لم يكن جديرا بما ابداه من كرم الاخلاق ثم قال · سأسهر عليك بمقلة اليقظان

— وكيف يتسنى لك ذلك · فربما عاد والدي هذه الليلة شانا الغارة عليكم فيمزق شملكم ويذبح منكم خلقا كثيرا

فاضطرب في نفسه عند سماعه كلامها وقال · اتنذرني هذه الفتاة بسوء يتهددني ··· وحينئذ شعر بثقل عبء المسؤولية الملقى على عاتقه بوجوب صيانة رجاله من غوائل الردى وعادت اليه روح الجندية دون ان تفارقه روح الحب اللطيفة · فقال بجهد · هلم بنا نرجع وعند وصولنا الى المعرس النازلة فيه رجالنا اسلمك الى بعض الخفراء ليوصلوك الى منزلك

— اتعدني بانك لا تسعى لالحاق بي ····

فقال بلهجة التهكم · مخافة ان يسيء مني السيد مراد

فقالت وردة بلطف غير كاتمة مخاوفها · مخافة ان يقتلك

فسألها قائلا وفي قلبه امال مبهمة · اتحبينني ·

فاجابته الفتاة بكلام يشف عما تبطنه من العواطف نحوه · لا اريد ان تموت

ثم انهما سارا على مهل وهما مكتئبان وصامتان · وكان رايموند كثير التفكير في واجباته وفي المستقبل الذي لم يكن يجسر ان يمد بنظره اليه · فكان

تارة يقاسي الآلام من فرحه وتارة يشعر بانه سعيد من جراء احزانه ولذلك كان اختلاط عواطفه تملاء فوءاده جراءة واقداما . وكان بنوع ما قد عرف ما كان مهيئا له في المستقبل . فقال في نفسه . ان الفتح قد انتهى الان وصار لي الحق بان افتكر بوردة واعتبر ان لها علي حقوقا مقدسة وضم اليه الفتاة المرتعدة ورفع بلطف نقابها القاتم عن محياها فالتقت شفتاهما وختمت بقبلات طاهرة

وقال الشاب وهو ثمل بخمرة الحب . اقسم بانك لي دائما مهما حالت بيننا الموانع .

فصمتت وهي مغرقة الفكر في ما جرى لها

وسمع عن بعد صوت الصوريوءذن برقاد الجنود

امام يافا

٥

وقف الجنرال بونابرت في مضربه ورفع طرف السجف قائلا . لقد طلع الفجر فكمل يابوريان المكتوب لنسيره هذا المساء مع تقريري عن هجومنا على يافا واستيلائنا عليها

فقال الكاتب مدهوشا . استيلاءونا عليها .

—نعم فبعد ساعة من الزمان اصدر الامر بالهجوم فجاءة وعند الظهر نستولي على المدينة

قال بونابرت هذا الكلام وجعل ينتظر من بوريان اشارة تدل على ارتيابه

في مقاله الا ان ذلك الشاب استأنف كتابة ما كان بونابرت يمليه عليه ·
فسأله هذا الاخير قائلا · اتشك انت في صحة ما قلته لك

— لا · لانك عودتنا كل العجائب

فسر بونابرت من ذلك الجواب وافتر ثغره متبسما ودنا من كاتبه وجذب اذنه قليلا قائلا له · الى اين وصلنا في المكتوب ·

— انك وصلت الى الموضع الذي تبين فيه لحضرة قرينتك الاسباب الواجب بسطها لدى الديركتوار عن حملتك في سوريا

— اقرأ لي العبارة الاخيرة

— « بعد معركة سديمان والثورة في القاهرة جرت مفاوضات جديدة مع مراد بك وابراهيم بك فصمما على الخضوع للافرنسيين والمحاربة معهم كتفا الى كتف · ولكن انتهى اليهما خبر ماله ان الباب جرد جيشين فتوقفا الان ريثما ينتظران نتيجة ذلك التجريد »

فعاد بونابرت الى المشي في المضرب ذهابا وايابا وهو كثير التفكير وقال · فلنكمل يابوريان ولنسرع ثم قال · « ان الافكار في القطر المصري قلقت خوفا من هذه الغزوة ولم يبق في اليد حيلة · وهب انضمت فصيلة انكليزية الى جيش رودس فان هذه الغزوة تجر الينا مما مخاطر جمة ولذلك صممت على المبادئة بالهجوم واجتياز الصحراء والبطش بجيش سوريا كلما اجتمعت الفرق المختلفة وعزمت على الاستيلاء على مستودعات ذخائره ومواقع العريش وغزة ويافا وعلى تجنيد المسيحيين في سوريا واثارة الدروز والموارنة وبعد ذلك على المسير بموجب مقتضيات الاحوال ··· »

وحبس لسانه عن الكلام حين دخل عليه احد الضباط فقال له بلطف ·

ماذا تريد ياسارجي وماذا جرى

— ان الجنرال لان الذي استدعيته قبل تبلج الضحى يسأ لك هل يستطيع القدوم اليك

يمكنه ان يدخل على بعد خمس دقائق حين اكون قد فرغت من هذا الكتاب لجوزفين . فلنستأنف الكتابة يابوريان

« اؤمل انه حين يذيع نبأ سقوط عكا في حوزتنا يبادر المماليك من عربان مصر وحزب اسرة ظاهر الى الانضمام الي . فلا يأتي شهر حزيران حتى اكون فتحت الشام وحلب وحتى تكون طلائع جيشنا قد توقلت جبال طوروس ويكون لدي ٢٦ الف فرنساوي و ٦ الاف مملوك وعربي من عربان مصر الفرسان و ١٨ الف درزي وماروني وجنود اخرى من سوريا ويكون ديزه في مصر مستطيعا مساعدتي بعشرين الف مقاتل منهم عشرة الاف فرنساوي وعشرة الاف زنجي . فعند ذلك يضطر الباب الى عقد الصلح معي ولا يعود يقيم النكير على زحفي على الهند . واذا اسعدني الحظ تمكنت من بلوغ نهر السند في شهر اذار سنة ١٨٠٠ باربعين الف محارب غير ملتفت الى ما نزل بنا من الخسارة من جراء فقدان الاسطول وقد سبقت لي مفاوضات في بلاد فارس وانا واثق بان الشاه لايتصدى لمرور جيشنا بطريق البصرة وشيراز والمقران . وانا موقن منذ الان ولو عاكست الحوادث امالنا ان حرب سوريا تنيلنا قسما من رغائبنا . اعني انه ينجم عنها ابادة الجيوش التركية وتثبت قدمنا في القطر المصري »

ثم ان بونابرت تناول من بوريان القرطاس الذي كتب عليه المكتوب وقرأه بسرعة وجلس هو نفسه في مكان كاتبه ليكمل بذاته المكتوب

لجوزفين ... ودخل عليه لان وهو يختم المكتوب فمد اليه بونابرت يديه وسأله قائلا . وماذا فعلتم بتلك الثلمة

— نأمل المرور بها عند الساعة الثالثة

— الا يمكنكم المرور بها قبل تلك الساعة

— ان العدو يصلينا نارا حامية ولا اشاء ان اضحي على غير طائل فريقا من جنودنا

وكان اطلاق دوي القنابل يغطي اصوات الحركة الجارية في المعسكر وبونابرت يصغي الى ازدياد حركة القتال . فحلت عنده ملاحظة لان محل القبول وقال . حسنا قلت فنحن على كل حال سنقضي الليلة القادمة في المدينة بعد ان نجعلها عبرة ظاهرة . واعلم انه قد انتهى الي هذه الليلة ان الالبانيين المنتظمين في سلك حامية العريش التي استسلمت قد نقضوا عهدهم بعدم العودة الى حمل السلاح لمقاتلة الفرنساويين في الحرب الحاضرة ودخلوا يافا ساخرين منا . فيجب عليك ان تعلم بالان انه لا ينبغي ان يستبقى واحد من هؤلاء الخونة

— اني وما تريد يا قائدي ومولاي

— يمكنك ان تهجم بجنودك حين تبتدىء حرارة النهار بالهبوط ... فماذا تبتغي مني يا سرجي .

— ان رسولا من قبل القائد ديزه اقبل حاملا رسائل من مصر العليا ومن سعاة القاهرة

فصرف بونابرت لان باشارة لطيفة وقال . فليدخل

ورفع سجف الخيمة وكان يحيط بها معسكر الفرنساويين فدخل فارس

علاه الغبار وبانت عليه علائم التعب فاضطربت افكار بونابرت عند روءيته سحنته المتغيرة وصاح به قائلا · أ انت آت الي باخبار تسوءني معرفتها ياحضرة اليوزباشي

— لا يامولاي فكل شيء على غاية ما يرام في مصر

— بناء عليه لماذا تدخل علي بهذا الوجه المتغير

فاحمر وجه الفارس عند سماعه كلام القائد واطرق برأسه معتذرا عن تلك الهيئة بوعثاء السفر ولكن بونابرت لم يعد يسمع كلام الاعتذار الذي كان يفوه به لانشغاله بفض رسائل ديزه فسأله بونابرت قائلا · ما اسمك ·

— بارسفال

فالتفت سارجي والدهش بالغ منه وضغط يد رايموند قائلا له بلهفة · ان هيئتك تغيرت كثيرا ولذلك لم اعرفك · فهل جرحت وهل انت مريض

— نعم

ثم ان بونابرت قطع حديثهما بقوله لبارسفال · ان رئيسك يثني عليك ثناء حسنا ولذلك فانا احب ان ابقيك في خدمة اركان الحرب عندي مطلقا لك الحرية المطلقة بالذهاب والاياب والتعرف بفرساننا بحسب هواك · انت تتكلم التركية والعربية وبناء عليه فانت تستطيع ان تقدم لنا خدمات مهمة

— ساستنفد المجهود للنهوض بهذا العبء ياسيدي القائد

— واومل انك لا تقذف بنفسك الى وهدة العطب

قال القائد هذه العبارة حين قرأ في رسالة ديزه عبارة عن رايموند وجعل يلاحظه لعله يرى على جبينه تأثير التوصية به

فقال رايموند بمرارة وتبسم خفيف ليس لي الحق بذلك

— حسنا قلت ياصاح فاذهب واسترح وسيعتني بك سارجي . ولست بمحتاج اليك قبل الغد

وعند خروج بارسفال من الخيمة طلب الى حاجب بونابرت ان يخليه وشأنه

فقال له الحاجب ضاحكا . وماذا تريد ان تجري

— ان ماتورل هنا فاحب ان اشاهده

— اتريد ماتورل البكباشي الذراع اليمنى لديجينت رئيس الاطباء ... فهو على مسافة ربع فرسخ من هذا المكان على طريق الرملة في المستشفى النقال

ودنا من سارجي جندي فامره قائلا . اسرج لليوزباشي افضل جيادي الثلاثة وسر معه الى حيث يقيم الطبيب ديجينت

فقال الجندي مدمدما . ان غبار الموت على وجه هذا الضابط المسكين وقد فهمت الان سبب ذهابه الى الطبيب

ولما وصلا الى شعبة طريق الرملة اندفع بارسفال مسرعا نحو البكباشي الذي كان قد اوشك من تضميد جرح جندي ملقى على الارض فصاح بفرح شديد . ياماتورل ...

فالتفت الطبيب وراءه و شد ما كان دهشه عظيما حين ابصر بارسفال فقال . ياريموند . وتعانق ذانك الشخصان . فقال ماتورل ودهشه يزداد . ومتى اتيت الى هذا المكان فامس كتبت اليك الى القاهرة

— اؤمل ان لا اكون قد ازعجتك

ــلا . لاني انتظر هنا الجرحى الذين يؤتى بهم من ساحة الهيجاء وبيين لي ان عددهم قليل الان

ــ بناء عليه يمكننا ان نتجاذب اطراف الاحاديث . . . وستقول لي . .

ــ لا اقول لك شيئا فقد اضنكك السير وارى من واجباتي ان اعتني بصحتك قبل ان اسمع حديثك . تعال معي الى خيمتي وتناول معي الطعام وحينئذ اقول لك كل ما كتبته اليك امس

وكان ماتورل يخدم على المائدة صديقه وهو يلاحظ ما كانت قد صارت اليه حالته في اثناء شهرين قضاهما في الكآبة والقنوط فكان ضعف رايموند وتعبه يرسمان على جبينه اثارا لم يكن الظمأ الشديد والجوع العظيم والعذابات المبرحة التي نالت الجيش الفرنساوي في الصحراء لتستطيع ان ترسمها على محياه . وكان حزن شديد قد تولاه ونال من اجلاده وجعل عينيه غائرتين في وجهه . فطفق الطبيب يقول . انك بعد اغارتك على القبائل المعادية انتهى اليك وانت في طيبة الكتاب الذي امضيته اليك من القاهرة ولذلك فلا اعود الى ذكر ما اودعته فيه من الانباء فغوران الذي انفذته الي في الليل لم يجدني في المعسكر بين الانقاض اذ كنت قد سرت مع الجرحى الى الجهة الشمالية بموجب اوامر القائد . وعند وصولي الى القاهرة تلقيت مع البريد التالي الكتاب الذي ارسلته الي ياعزيزي رايموند

ــ نعم . . . وبعد قتال دام يومين تمزق شمل تلك القبائل فعدنا الى القرية ولم نجد سوى انقاض حولها النار رمادا وكان مراد الذي ينبغي لي ان احرم حبل حياته قد فر بوردة الى مصر السفلى

ــ لو كنا عارفين منزلته عند ابراهيم لكنا على الاقل ابقيناه اسيرا

بمثابة رهن ... وان الكتاب الذي انفذته اليك امس ينبئك عن الابحاث التي اجريتها فانت كنت تظن ان وردة قد جيء بها الى القاهرة وانها محجور عليها عند نسيبها منصور . فاستعنت برجال حكومتنا واحفينا في التنقيب عنها في كل ناحية واليك ما تمكنت من معرفته ...

وكان رايموند يرنو بعينيه الى ماتورل والحمى تتأكل اوصاله وهو يكاد يهوي الى الحضيض الا ان ماتورل شاء تسكين اضطراب باله فقال . قبل كل شيء يجب ان تعلم ان اسباب الامل لم تتصرم بعد وعندي ان وجودك هنا افضل الوسائل لادراك متوخانا

— ووردة

— لم نقف لها على اثر في القاهرة وقد برح المملوك منصور هذه المدينة منذ ثمانية ايام سائرا بامتعته الى عكاء لموافاة ابراهيم . وعليه فيترجح ان يكون مراد قد ذهب بابنة عمه الى سوريا بعد ان اضرم النار في منزله رغبة في تضليلك عن الاهتداء الى مقره

فابرقت اسارير وجه بارسفال . فحينئذ قال له ماتورل . اراك تحب هذه الفتاة حبا ما وراءه من مزيد

— احبها حتى الموت

— الان فهمت رغبتك في المجيء الى هذا المكان بالمهمة الموكولة اليك .

— بحث لديزه بكل شيء فشفق علي وشق عليه كثيرا يأسي ولذلك سيرني الى القاهرة حاملا رسائله وكنت انت برحتها منذ مدة قصيرة .. فتمكنت من الاستقصاء في البحث عن منصور وعلمت انه في سوريا ولم تخامر فؤادي ادنى ريبة في ان وردة عند ابراهيم . وكنت اظن انها وصلت

في الحين الملائم الى مصر السفلى لتطلق منها مع منصور الذي اصبح الان زعيم الاسرة .

ـ وماذا جرى لابيها

ـ قتله خفير الفرنسي غد اليوم الذي غادرتنا فيه حين كان يعالج دخول القرية . وقد قيل ان مرادا لما عرف جثته عند حاجز القناة صمم على اضرام النار في المنزل والفرار بوردة . ولم يكن في ذلك الحين في المعسكر ولذلك لم يتصد احد لانطلاقهما وفضلا عن ذلك فان هذا الانطلاق قد خفف الحمل الذي كان رجالنا يشعرون بانه يثقل ضمائرهم منذ مقتل روبين والعفو عن القاتلة

ـ احقيق ان وردة قتلت

ـ كنت انا مستهدفا لنبال الهلاك فقذف روبين نفسه بيني وبين القاتل .

واراد ماتورل ان يمحو من مخيلة رايموند صورة تلك الفتاة وينسيه ذكرها فقال له .

ـ لا القي لدي ادنى عذر ينصلها من تبعة تلك الجريمة

ـ ليتك تدري حقيقة عواطفها

قال هذا الكلام وحبس لسانه مخبئا سره ملقى في زاوية ضميره واغمض عينيه متبسما لرؤيا شبح حبيبته الذي لم يكن ينى عن انتياب مخيلته . ان وردة لم تكن تتعمد قتله الا لانها كانت تنظر فيه سيدا لها او بالاحرى عاشقا . وكان بحركاته هذه ينم عن المحبة الشديدة التي كان يحب بها تلك الفتاة المتوارية . ثم انه قال . كنت مؤملا ان اشاهدها هنا وكان ضميري يناجيني بهذا الامر . وحين وصلت الى القاهرة ورأيت ان املي بوجدانها قد

خاب شعرت بان الارض تمور حولي وكاد عقلي يفارقني فاردت الانتحار.
ولكنني عدت فافتكرت بوطني وآثرت الموت كجندي في سبيل خدمته

وبعد ان احفيت في التنقيب والغيت الادلة التي تجعلني اهتدي الى المقر الذي وضع فيه مراد اسيرته خطر في بالي ان اوءم القائد مينو فذهبت اليه وبحت لديه بكل ما يكنه ضميري... ففهم كل ما كان يجول في خاطري لانه كان قد اقترن بفتاة مصرية اقل جمالا من وردة ولكنها كانت تماثلها في كرم الاخلاق وجودة القلب ... فاعطاني كل الرسائل المنفذة الى القائد الاكبر واوعز الي بحملها اليه ... فجعلت اعدو بسرعة الريح وقد هلك تحتي اربعة من الجياد وصحبني خفراء تركتهم ورائي في الصحراء التي يكثر فيها وجود اللصوص وقطاع الطرق واجتزت المطرية وجنجوبليس والقريم والصالحية ولم اضيع من الوقت الا الفترة التي اتمكن بها من تغيير الجياد في القنطرة والقطيع وبئر العبد والميودية والعريش وخان يونس وغزة . ومن عازوته الى هنا ركبت بعيرا وها انذا وافيكم امام اسوار يافا بعد ان اجتزت في خمسة ايام صحاري لم يتمكن الجيش من اجتيازها الا في مدة اسبوعين ... اجل اني لم ارقد ولا اذكر ابدا اني عطشت او اني شربت

وبينا هو يحدث ماتورل بالحديث الآنف الذكر جاء بعض الجنود يحملون الجرحى الى ماتورل لمعالجتهم وكانت اصوات المدافع والبنادق قد انقطعت فقال ضابط اولئك الجنود. يوجد هدنة الان فان بونابرت اضطر المدينة بواسطة سفير تركي بوجوب التسليم . فاذا لم يرقهم اقتراح بونابرت عاد رجالنا بعد ساعة من الزمان الى استئناف القتال

وكان ماتورل يعالج الجرحى ويضمد جراحهم فقال لبارسفال . يجب

عليك ان تنام عدة ساعات وساوقظك لكي تشهد الهجوم

وجرع ماتورل رايموند شرابا مقويا فحينئذ نام هذا الاخير نوماعميقا وهو يلفظ بين شفتيه اسم وردة

زورق مراد

٦

ولما انتهى بلاغ بونابرت الاخير الى الباشا حاكم يافا دعا اليه هذا الاخير مجلسه الحربي وقال . اني جمعتكم لاقرأ عليكم هذا البلاغ الاخير وبعد اعمال الروية تبدون لي رأيكم في مايجب علي اجراءوه

قال هذا الكلام وجعل يقرأ عليهم بتهكم باد في لهجته مكتوب بونابرت وهذا تعريبه . —

من رئيس اركان حرب الجيش الفرنساوي العام الى قومندان موقع يافا عن مركز المعسكر العام امام اسوار يافا في ١٧ من شهر فنتوز السنة السابعة

بسم الله الرحمن الرحيم

ان بونابرت القائد الاكبر مفوض اليه ان يشعركم بان الجزار باشا قد ابتدأ باشهار العداوة لمصر عند هجومه على قلعة العريش . وان الله عاضد العدل قد رزق الجيش الفرنساوي نصرا مبينا فاستعاد القلعة المذكورة وانه من جزاء هذا الامر قد دخل ارض فلسطين ليطرد منها جنود الجزار باشا الذين لم يكن يجب عليهم ابدا ان يدخلوها وان يافا محاصرة من جميع جهاتها . وان

بطاريات المدافع ستهدم في ساعتين من الزمان السور وتدك حصونهم دكا وان فؤاده يتوجع لما سيحل بالمدينة كلها من المصائب والنكبات بمقاومتها له ولجنوده وانه يقترح الامان لحماية المدينة ويوجل الامر باطلاق النار الى الساعة السابعة صباحا اسكندر برتيه

فكان لقراءة ذلك البلاغ رنة تذمر عند الجميع وقال الباشا ارانا جميعنا متفقين في الرأي . فهل ينبغي لنا ان نشعر الاهلين بمضمون هذه الرسالة

فاجابه مملوك مدجج باسلحة ثمينة ولابس ثيابا فاخرة وعلائم العجرفة بادية على وجهه

وماذا يهمهم هذا الامر

فحينئذ قال القائد الاعلى بخشوع قرر المسألة يامراد فانت تتكلم بلسان بكوات مصر العظام وباسم الجزار نفسه وكان مراد قد شفي من جرحه ولم يبق عنده من اثر له سوى البغض ومحبة الانتقام . فتولى زعامة تلك الجلسة الحربية برضى الجميع وقال . ومن يجسر على ارسال هذا البلاغ المحقر الينا

— رجل تركي اسر في الرملة

— فليقطع رأسه وليطرح في خندق الفرنساويين الامامي بمثابة جواب لهم

فاجري امره للحال وقال مراد . اتيتكم من قبل ابراهيم بك والجزار باشا تجلدوا بضعة ايام اخرى فيقدم لنجدتكم الاسطول الانكليزي الباذل وسعه الان للبلوغ اليكم باسرع ما يمكن وسيكون لديكم في عكا وقت كاف لاعداد معدات الدفاع . فقال القائد العثماني حسنا قلت فلن الجميع



سيحتشدون على الاسوار ما عدا الالبانيين الذين اطلق سراحهم في العريش السلطان بونابرت

— ولماذا

— لانهم تعهدوا بالا يحاربوه

— وهل اقسموا بذلك

— هل اقسموا على القرآن

— لكلب مسيحي ؟ . . فمن المقضي عليهم المحاربة معنا دون ان يهتموا بذلك القسم الفاسد الكفري . سلحهم وانا اتولى قيادتهم

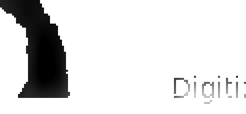
فللحال اطاعوا امر مراد وسمع صوت عن بعيد ينبيء ان رأس الرسول قد قطع والقي الى المحاصرين . وحينئذ استوءنف اطلاق القنابل على المدينة فتهدم قسم من السور الخارجي في الجهة الجنوبية الشرقية وجعلوا يتوقعون انهدام ما بقي منه قبل انقضاء ذلك النهار

وقال المملوك الشاب لمعاونه : ياعبدالله ربما كانت مغبة هجوم الاعداء وخيمة علينا فلا يحق لنا ان نموت هنا دون ان نأتي عملا يذكر فيشكر . فهم بحاجة الينا في عكاء اسرع الى المرفأ وهيىء لنا زورقا واعد رجالا اشداء امناء للتجذيف ودعهم ينتظروننا دون ان يبدو ادنى حركة

— الا يسد علينا هوءلاء الشياطين طريق البحر

— ان سفائنهم باقية في الاسكندرية ولم يبد لها اثر في هذه الانحاء وان ما شاهدته في عرض البحر هو دارعة انكليزية اتفقنا مع ربانها على حماية البحر من الاعداء

— ولكن سقوط المدينة في ايدي الفرنساويين يضطرها الى مغادرة



هذه البقعة م

— لا تبرح هذه الارجاء قبل ان تأخذنا معها فسدني سميث اصدر اوامره بهذا الصدد

وذهب عبدالله الى المرفأ لاجراء اوامر المملوك الزعيم وكان قد فوض الى فصيلة من الجنود الالبانية امروقاية الزورق من اعتداء الفارين

وبقي اطلاق المدافع متواصلا سحابة ذلك النهار كله وعند الساعة الرابعة سقط السور الخارجي في الخندق فطبقت الفضاء اصوات الفرنساويين وصاحوا جميعهم فلنهجم فلنهجم

الا ان تحدر الثغرة في ذلك السور لم يكن يمكنهم من الدخول بغير سلالم وكان الليل قد اوشك ان يدخل فخشي المهاجمون من اختلاطهم بالاعداء تحت جنح الظلام فصاح القائد لان بالمدفعيين ثابروا على اطلاق القنابل على الثغرة لتوسعوها. فغدا عند طلوع الفجر نهجم على المدينة

وجاء رجل من الالبانيين الى مراد مسرعا وهمس في اذنه قائلا • اخشى من سقوط زورقك في ايدي الفرنساويين فانهم ابتدأوا يتسلقون السور عند زاوية المرفأ

فاندفع المملوك الى ناحية البحر والحسام مشهر في يده وصاح • سيروا بنا جميعا الى المرفأ وقولوا للباشا ان يبذل وسعه للمحافظة على ثغرة السور وسادفع هجمة الاعداء من جهة البحر

وكان قد فات الوقت لتحقيق اماني مراد لان جنود فصيلة بون التي فوض اليها بعد الظهر اشغال الحامية في جهة المرفأ كانت قد دخلت المدينة بكل جرأة وجعلت تبدي من فنون البسالة اشكالا والوانا

ولما علم القائد لان بما اجرتــه فصيلة بون وبما نالته من الفوز اصــدر الامر بالهجوم على الثغرة لنجدة تلك الفصيلة ولم يبــال بــدخول الليــل واضطراب حبل النظام بين الجنود . فدخل الفرنساويون من الثغرة ظافرين وحينئذ لم يعد شيء من الاشياء يحمي المدينــة من فظائــع الخراب فانتشر الجنود الفرنساويون في كــل جهات المدينة وجعلوا يعيثون فيها فسادا ولمــا التقوا بفصيلة بون كان مراد قد جمع اليه الالبانيين بغية تأخير الهجوم على المرفأ وعالج تقطيع نظام الفرنساويين المحيطين بالشوارع الواطيــة . وكان يتقدم بجراءة عظيمة ومعه شرذمة من الابطال الى اركان حرب الفصيلــة المهاجمة ولكنه ما عتم ان صاح بغتــة بصوت التعجب وانثنى منقلبا بكل سرعة . فقال لنويه والقذائف ترش كالمطر . وهو ايضا هنا . . .

وكان قد شاهــد بين الضباط المهاجمين رايموند بارسفال الذي كان يبحث عن ضالته المنشودة بين المماليك فصاح المملوك بعبدالله . علم بنا ننزل الى الزورق

— الباشا ينتظرك في المركب الذي ليس لنا من معقل سواه في هذا المكان

— بعد قليل من الحين اتبعك . . . تعال الي ايها الاعرابي الشيخ

فاسرع الرجل المنادى وحينئذ قال له مراد . الا تحسن الرماية . . . لقد رأيتك امس مساء من اعلى الابراج ترمي النار على رجل افرنسي وتقتله على مسافة مائتي قدم

— اجل اني فعلت ذلك الامر

— وانــا كافأتك على ذلــك باعطائي اياك تسعين فرنكا



— اذكر هذا الامر يامولاي

— ساعطيك ضعف هذا المبلغ ان انت اطلقت النار على الضابط المشهر سيفه للحاق بنا وقتلته

— انه من المقضي عليهم بالموت

قال الاعرابي هذا الكلام ورفع بندقيته الى كتفه · وكان اثناء ذلك الحين قد احتشد حول بارسفال جمهور غفير من المهاجمين · ولما اطلق العيار الناري هوى ذلك الضابط الى الحضيض واختفى بين الجموع · ففرح مراد عند روءيته اياه ساقطا الى الارض والقى كيس المال الى الاعرابي · ثم قال سيروا بنا الى المركب وصعد الى الزورق · ثم ان ذلك المملوك قال للاعرابي الذي ساعده على ركوب الزورق وعاد الى حشو بندقيته الهائلة اتريد المجيء معي · فلك محل هنا تنجو فيه من الردى

— لا اشاء الذهاب

— لا يجديك عنادك نفعا · ما اسمك

— محمد

— يامحمد اودعك وانذرك بالموت بعد ساعة من الزمان

— خلص ابني

— هل يحسن الرماية نظيرك

— يفوقني فيها

— قال الاعرابي هذا الكلام ونادى ياعمر · فجاء شاب وبيده بندقية لا يزال الدخان خارجا منها لانه كان يطلق النار على المهاجمين من وراء صناديق البضاعة المتراكمة على رصيف المرفا

ولما ابصر الباشا طليعــة الجنود الفرنساويين تبدو عند مدخل الشارع صاح . سيروا بنا .

وصاح مراد . تعال ياعمر

فعانق عمر والــده الذي كان ينظر اليــه بعطف وحنان ووثب الى الزورق . وكان الليل قد اقبل بخيله ورجله فلبث محمد واقفا فى مكانــه ينظر الى ذلك الزورق الذي توارى وحينئذ عاد محمد الى ساحــة القتال بعد بضع دقــائق وراء صخر كبير . ولحيته ملطخــة بالدم على اثر اصابته برصاصة جرحت خده . وبانت هيئة ذلك الاعرابي تمثل ابا من اباء العهد القديم يسترخص نفسه في سبيل الدفاع

وكان زورق الباشا يبتعد عن البرفجاءت السفينة الانكليزية لملاقاتهــم وكان مراد وهو في وسط الميناء يسرح طائر مقلتيــه في المدينــة التي كانت النيران ووميض العيارات النارية تبدد شمل الظلام عنها . فاوعز الى المجذفين بان يسيروا الهوينا . فقال له الباشا ان هذا العمل لا يعد من باب سداد الرأي

— ولماذا ... انهم لا يقدرون على اللحاق بنا لاننا ابتعدنا عنهم واصبحنا بمأمن من وصول قذائف بنادقهم الينا . وهم لم يخرجوا مدافعهم بعــد من المعسكر

— وماذا نفعل هنا

— ننتظر ذينك الرجلين الآتيين الينا سباحة لينجوا معنا

قال مراد هذا الكلام ودلهم بيده على رجلين كانا على مسافة خمسين مترا يسبحان نحوهم

فقال الباشا . ان انتظارنا لهم لايجدي نفعا لان الزورق مشحون واذا

صعد اليه غير الموجودين فيه خشي من انقلابه بمن فيه وخصوصا فى المدخل الضيق

وكان البحر هائجا ولاسيما عند مدخل المرفأ . فصاح ذانك الرجلان بصوت عظيم حين ابصرا الزورق مواصلا السير . تداركونا والا بتنا فريسة للبحر

فقال ضابط من حاشية الباشا . انا اعرفهما وسمى يوزباشيين من اركان حرب الموقع . وكان الباشا خائفا من الغرق فقال . اتيا متأخرين

فاقام عليه النكير رفاقه وقالوا . يجب علينا ان ننتظر رفيقينا وننقذهما.

فقال مراد . نطقتم بالصواب

ورأى الزعيم ان الاذعان اولى من سواه في مثل ذلك الموقف فصمم على الموافقة على تنجية الرجلين اللذين كانا يسبحان واوشكا ان يغوصا في اللجة . وكانا ضخمي الجثة فرزح الزورق بهما وكاد يغرق فى الماء . فقال رئيس المجذفين . اخشى من الغرق عند مرورنا لان البحر هائج جدا عند مدخل الميناء

فسأل مراد . وماذا يجب علينا ان نفعل

فاجابه رئيس المجذفين . يجب تخفيف الزورق

ووصلوا الى الصخور فكانت الامواج تتكسر عليها بعنف . وحين بلغوا مدخل الميناء صاح مراد بلهجة الآمر . فليقذف اثنان من ركاب هذا الزورق بنفسهما في البحر متطوعين

ولما لم يتحرك احد لتلبية امره قال . ليلق بنفسهما الى الماء الرامي والحداد . فجعل ذانك الشابان اللذان سماهما مراد ينظر الواحد منهما الى

الاخر وعلامة الحيرة بادية عليه لانهما لم يكونا يحسنان السباحة . وكان الموت الزؤام يترصدهما في البحر . فقال رئيس المجذفين . ياصفد انك تحسن السباحة كالسمكة فالق بنفسك الى البحر فتنجو وننجو نحن ايضا

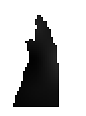
وصاح مراد بصوت كالرعد القاصف . ياعمر وياصفد ثبا الى الماء وصوب اليهما غدارته . فاراد الاعرابي الدفاع عن نفسه ولكنه لم يكد يتحفز للقيام حتى مال الزورق فاطلق عليه مراد عيارا ناريا فصاح عمر بصوت عظيم وهوى الى اللجة وقد خرقت جبينه رصاصة مراد . وللحال قذف بنفسه الى البحر فغاب عن الابصار . ثم عاد وظهر على مسافة ثلاثة امتار عن الزورق سابحا نحو المرفأ وهو يصيح بملء شدقيه . فلتحل عليكم لعنة الله

فاجابه مراد باطلاقه عليه عيارا ناريا من غدارته الثانية بيد ان ذلك البحار الخفيف الحركة مال من الجهة المصوبة اليها الغدارة وغاص في الماء . فقال رئيس المجذفين . سيصل سالما الى البر . والان تحذروا فقد اوشكنا ان نصل الى مدخل الميناء . والحق يقال ان ذلك الزورق مر بين الصخور كأنه سهم مرسل عن الوتر فصاح مراد اسرعوا بالمسير الى السفينة الانكليزية

وكانت مدينة يافا وراءهم وقد لبست حلة من النار . وكانت اصوات الناس فيها تطبق الفضاء منبئة عما حل بها من النكبات الفادحة

وكان عند زاوية المرفأ بعض الاهلين المتحصين يدافعون عن ذواتهم فظهر بارسفال بغتة وراءهم ومعه ثلاثة رجال من المتطوعين في فصيلة بون . وصاحت اصوات شرسة . اطلق النار عليه يامحمد

الا ان الاعرابي الشيخ كان ينظر الى رايموند كأنه عائد من عالم



الاموات فدهش بارسفال من ذعر الاعرابي ودهشه وللحال خطر في باله فكر غريب فقال لرجاله . اقبضوا عليه حيا

وجاءوا بالاعرابي الى اليوزباشي بعد ان بطشوا برفاقه فقال له بارسفال بحدة .

هل تعرفني

— نعم انت هو بعينه فان الله يريد موتي

— ماذا تقول

— منذ مدة قصيرة كنت تقود جنودك هناك تحت مكان المشنقة... فاطلقت عليك النار ولكنك لا تزال حيا ... وهذه اول مرة اخطأت رصاصتي مرماها ومع ذلك فقد ابصرتك تقع على الارض ...

فتذكر رايموند ان ازدحاما شديدا صرعه على الحضيض وعند سقوطه سمع صفير رصاصة مرت عند اذنيه فقال للاعرابي . الم تكن تعرفني قبل هذه المرة

— لم اكن اعرفك ابدا

واشار الى ذويه بان يأخذوا الاسير فدنا منه كرتلي وقال له . هل يهمك هذا الرجل ياحضرة اليوزباشي

— لماذا تلقي علي هذا السوءال

— لانه حين يتوارى عن نظرك يصبح جثة هامدة فقد تلقينا الامر بالا نبقي اسرى معنا

— ان هذا الامر فظيع ... خذ هذا الرجل الى المرفا وقل له ان ينجو بنفسه سباحة

فسار الجندي بمحمد الى شاطئ البحر . وكان ثمت بعض الاتراك يتعدون الى زاوية المرفأ مسرعين تحت انظار الفرنساويين . وكان هؤلاء يغضون الابصار عنهم لئلا يضطروا الى اطلاق النار عليهم . فاشار الجندي بيده الى البحر داعيا الاعرابي الى القذف بنفسه فيه للحاق بالاخرين . فهز الاعرابي رأسه رافضا الاذعان الى ما طلبه منه الفرنساوي

فنظر كرتلي الى رايموند الذي كان اتيا وراءهما وقال له . لا يريد هذا الرجل النزول الى الماء فهو ينتظر ان نقدم له بعيرا لينجو به في الصحراء فكيف العمل

— دعه ... وسر بنا

— انهم يقتلونه

— من المحتمل ان يكون هذا الامر فهو رجل شيخ والدم يسيل من خده وهو يكاد يموت

— لا تظن انه صار الى هذه الحال فانه قتل جاويشا من جنودنا وجرح فارسا . فهو يطلق النار على المسيحي كما يطلق النار الصائد على قنيصته ... ولكن ما باله ... فيظن الناظر اليه انه يريد شدخ رأسه ...

وكان محمد ينظر والذعر بالغ منه . رجلا يسبح في البحر آتيا اليه وهو ينظر اليه بعينين يجول فيهما القلق . فصاح الاعرابي في الحال وهو يساعد الرجل على الصعود الى البر . يا صفد هل انقلب الزورق بمن فيه ...

— لا ... ويحا لهم من لئام ...

— وماذا جرى لعمر ابني

— مات

ــ وكيف كان موته .

ــ قتله مراد

فصاح الاعرابي حانقا وهو يكاديتميز من الغيظ والالم وقبض بشدة على ذراع صفد وقال لــه . اصدقني الخبر

وكان بارسفال قد امتقع لونه عندسماعه اسم مراد فجعــل يصغي الى حديثهما ونار الغضب تتحدم في فوءاده فاوجز صفد في حديثه ومد يده نحو البحر فاحنى الشيخ رأسه وكان الناظراليه يقرأ على جبينه كل اشجان الاب وقنوطه . ولم تذرف دمعة واحدة من عينيه على خديه ولكن شفتيه كانتــا ترتجفان وعينيه كانتا محملقتين وقال بصوت يكاد يخنقه الغيظ . الويل لك يامراد

وارتعدت اوصال الاعرابي عندشعوره بيد تمس كتفــه فالتفت الى الوراء فابصر بارسفــال فسأل هــذاالاخير بلهجة مضطربة ومن هو مراد هذا الذي تذكره

ــ وهل تعرفه . هو مملوك وقداعطاني منذ مدة قريبة مبلغا من المال لاطلق عليك النار

فاشتد اضطراب رايمونــد عندسماعه ذلك الكلام وقال . اهذا مراد ... وهل نجا في زورق بقتله ابنك عمر الذي كان يضايقه

ــ هل سمعت ما دار بيني وبين صفد من الحديث... واحسرتاه انه قتل ابني ...

ــ اصغ الي ... اتريد الانتقام لابنك منه

ــ نعم وياحبذا لو كان يتم هذاالامر حالا فانا عندك وتراني اطوع لك

من بناتك

— اتريد انت وصفد ان تتقيدابخدمتي

—نعم نريد ذلك من كل قلبنا

— اتحلفان على هذا الامر

— نقسم عليه بالقرآن الشريف

وكانت النار تتقد في اعين ذينك الرجلين اللذين كانا ينويان اتيان امر تعجز عنه عجائز وائل ففكر بارسفال في نفسه وقال . اني اخلص هذين الرجلين من الموت . ونادى كرتلي قائلا له . ان هذين الرجلين مقيدان بخدمتي فخذهما الى خيمتي

— ولكن ياسيدي اليوزباشي . .

— اذهب وقل لماتورل ان يعتني بهما . . وانا المسؤول عنهما .

— غدا سيعمدان الى الفرار كغيرهما ثم يعودان لمقاتلتنا

— اعلم ان احدثهما سنا هو من سكان يافا وهو بحار ولم يقاتلنا ابدا

— اعلم ذلك ولكن رفيقه الشيخ

— سيكون اشد اخلاصا لنا من سواه

— وهل استعملت له الرقية

— نعم

— وهل ينفع هذا الامر .

— انه افضل شيء يمكن استعماله مع العرب

— اتعني بهذا الامر القوة

— لا ولكن الانتقام

محمد

٧

وكان الليل قد اقبل لما خيم الجيش على ضفة نهر قردانه اليسرى من جهة عكاء الاخرى وجاءت اركان الحرب بين الاجام وغياض القصب لاستطلاع موقع تلك الارض فتحقق بارتيه ان الجسر كان مهدوما ولكنه قال ان الجنرال إندريوسي سيعيد بناءه هذه الليلة بعينها وغدا ستتمكن من الهجوم على المدينة . وقال لان بلهجة التأكيد الخالية من اثر الخفة والطيش . وبعد ثلاثة ايام نستولي عليها

فالتفت اليه بونابرت وهو كثير التفكير وقال . لم تصب هذه المرة يالان فلسنا في يافا حيث جنينا ثمار الانتصار من مفاجأتنا لها . فلا يخفى عليك ان عكاء تتناول النجدات من جهة البحر بغير انقطاع وان الاميرال سدني سميث يأتيها دائما بالمدد ولديه في سفائنه بطاريات مدافع قوية . وفي المدينة قلاع حصينة ولها سور متين وقد لجأ اليها الجزار بنفسه . وبناء عليه فلا نرى لنا مندوحة عن محاصرتها بموجب قواعد الحرب الفنية . وهذه الوقعة ستكون اخر الوقعات لحملتنا .

— نحن نجهل حقيقة تحصين المدينة لان الضابط الذي وكلنا اليه مهمة مفاوضة الجزار لم يعد الينا بعد . ولم نحصل منه على ادنى افادة تتعلق بهذا الشأن ومع ذلك فلا بد لنا من المفاوضة مع من هم في داخل المدينة

فقال بونابرت ادعوا الى بارسفال فقد اقترح علي امس ان آذن له بدخول

المدينة متنكرا

— ان ركوب مثل هذا المركب الخشن يؤدي براكبه الى موت محقق لان فيليبو الجاحد يوزباشي المدفعية الفرنساوية سابقا هو الان منتظم في سلك خدمة الاتراك ...

— اني اعرفه معرفة حقيقية فهو ذو نفس لئيمة وذو وجه وقح

— انه متول قيادة مدفعية الجزار ولا يستطيع رجل اوروباوي ان يدخل المدينة دون ان يقدم اليه .... وان تنكر بارسفال لا تجديه نفعا

ولما سمع رايموند هذه الملاحظة قال . اني انفذ رسولا امينا ولا افارقه الا عند اسفل السور

— وكيف تضمن اخلاصه

— اتحمل مسؤوليته يامولاي القائد . فهو الرجل الذي اسرناه في يافا ...

— اجل انه الاسير الوحيد ...

— ان ضباط الجزار قتلوا ابنه .

— ان انتقاما شخصيا موحى اليه وهو لا يتعمد شيئا سوى اطفاء لهيب ذلك الانتقام

— ونحن ايضا لنا خطة ننتهجها . ايمكنني ان اعده بحصته من الغنيمة التي نصيبها عند هجومنا على المدينة

— افعل ما تريد ياحضرة اليوزباشي

ولما كان اندريوسي صاعدا بفصيلته في نهر قردانه ومستوليا على السهل المشرف على المدينة والنهر وهازما امامه طلائع الاعداء وواصلا علاقاته مع

الجيش المخيم على ضفة النهر الاخرى كان رايموند ومحمد وصفد سائرين الى ناحية مصب النهر . وكان الرجال الثلاثة قد اختبأوا بين القصب وجعلوا يتحدثون همسا فقال بارسفال .

يجب عليك يامحمد ان تسير الى ذلك الخفير المقيم عند مقدمة جيش الاتراك وتخبره انك من عداد الفارين من مدينة يافا وانك تطلب ان تخدم مع مماليك مراد

فقال الاعرابي بلهجة جدية . هذه هي الوسيلة الوحيدة للوصول اليه

وقال اليوزباشي للاعرابي وهو ينظر اليه نظرة معنوية . انك تذكر دائما ما اقسمت عليه

— نعم .. ولو مر مراد امامي في محل منفرد عن الناس بحيث تصل اليه رصاصة بندقيتي فاني احبس يدي عن اطلاق النار عليه قبل ان اعرف ما تريد اجراءه فيما يتعلق به

— ان حياة مراد تخصني فقبل ان اعطيكها يجب ان اخاطبه

— اماثلك على هذا الامر وادري ان الافرنسيين لا يشق لهم غبار فهم ولا مراء سيستولون على عكاء وسيقع مراد اسيرا في ايديكم ولكن اريد ان تحلف لي بالشرف العسكري ان هلاك هذا الملعون لا يكون الا بيدي

— كلام الفرنساويين شريف

— نظير كلام عرب البادية

بناء عليه استعد للسفر وتحذر بنوع خاص من رصاص بنادق الخفراء

— لا تصيبني ... ففي ثلاث ليال في المعسكر ...

— لا تعالج الوصول اليه توا مخافة ان تستهدف للهلاك بدون فائدة . ففي

الليلة الرابعة اوافيك انا وصفد بعدطلوع القمر بساعـة من الزمـان فننتظرك ويمكنك ان تدخل الى المحلة دون ان تخشى شيئا ... فان انا لم اكن هناك او اذا انت لم تستطـع الخروج في الحين الملائم فاذكر اسم اليوزباشي سارجي ووافه ذاكرا له اسمي لانـه واقف على كل شيء

فودعه الاعرابي الشيخ وسارنا حيا المدينة ولبث رايمونـد والبحار واقفين مكانهما والقلق بالغ منهما ولما اقترب الاعرابي مـن الخفير نـاداه بصوت منخفض فاجابه الخفير قائـلا . قف مكانك والا اطلقت عليك النار

— حـذار من ان تنبـه هؤلاء النصارى الكلاب ... فانا من عداد الذين نجوا من يافا ...

— انت كذاب فلم ينج منها احد

— اذهب الى ضابطك وقل له ان مرادا شيخ المماليك يعرفني ...

وعند ذكر محمد ذلك الاسم المرهوب نادى الجندي رؤساءه فقال احدهم للاعرابي غير المنظور . تعال الينا ويداك على راسك

فاجابهم الاعرابي على ما طلبوه منه وادخلوه المدينة بعد ان القوا عليه عدة اسئلة موجزة لم يشتبهوا به منهـا بشيء يقلق البال . وقال ضابطا اذا كان مراد يعرفـه فاخلوا سبيله والا فاقتلوه رميا بالرصاص

وجاء بارسفال وصفد الى المحل الذي بنوا الجسورة الموقتة عند المحل المخيمة فيه جنود اندريوسي فقال صفد انه سيبلغ وطره

— وهل يكون امينا لنا

— يحبك محبته لابنه ويحترمك احترامه لمولاه . فانت فاضل وكريم وسلطانكم الكبير يحبه الله

— وهل تتمنى انت نجاحنا

— احب بلادي وارى انكم تريدون نجاحها فانا ومحمد تحرينا ان نكون عبدين لك ما دمنا في قيدالحياة

• وكان صدق السوري ينعكس على مقلتيه ومضى بارسفال الى سارجي واخبره بما جرى وخيم الجيش في السهل الفسيح المنبسط امام المدينة

وساروا بمحمد الى قصر الباشا حيث كان مراد ومماليكه مقيمين فتلقاهم جندي الباني وقال لهم ان اركان الحرب مجتمعين في مجلس حربي وقد امروا ان لا يزعجهم احد بشيء من الاشياء الا لامر في غاية الاهمية

فقال له رئيس الخفراء بناء عليه فاني اترك لديك هذا الاعرابي واربعة من رجالي لخفارته

وعند خروج مراد المملوك من المجلس اخبره ان هذا الاسير يطلب منه وان كان هذا الاعرابي كاذبا في زعمه عرف رجالي ما يجب عليهم اجراؤه به

وكان يسمع من وراء الستائر المرخاة اصوات الزعماء والجزار جالس في الوسط وهو يسمع محاورة جلسائه ومباحثتهم

وكان بينهم مهاجر افرنسي يدعى الامير الاي فيليبو وقد خان وطنه مرتين بفراره منه وانضمامه الى اعدائه لمقاتلته • فرسم لهم خطة الدفاع عن المدينة • وكان بجانبه رجل انكليزي ساكن الجاش يتبسم تبسما معنويا ويبذل ما في وسعه لتسكين ثورة الافكار الناجمة عن حدة مراد • فكان ذلك الانكليزي يلقى من حين الى اخر بعض كلمات موجزة مشتركا معهم في مباحثتهم • واما الضباط الاخرون الاتراك فانهم لبثوا صامتين

كزعيمهم لان شروح فيليبو في مايتعلق بالامور الحربية الفنية كانت تروقهم ٠ الا ان مرادا لم يكن ميالا الى فيليبو فخاطبه باحتقار قائلا ٠ الا يريد الامير الاي فيليبو ان يقول لنا ما هي الخطة التي يريد انتهاجها بونابرت صديقه القديم

فاضطرب فيليبو عند سماعه اسم فاتح ايطاليا ومصر وتمثل لذهنه كل تاريخ حياته وحسده لذلك القائد الذي ملاءت الافاق شهرته٠ فكان قد اغمض عينيه عن فرنسا ولم يعد ينظرها وكان كل همه موقوفا على طمس اثار مجد ذلك الذي كان يسميه عدوه ٠ قال٠ ان جيش بونابرت يباشر غدا حركاته الحربية بدنوه من سور المدينة وبتصويبه كل قواه على البرج الكبير المبني فوق الزاوية الناتئة الموصلة بين جهتي السور الجنوبية والشمالية

فقال القائد الانكليزي بكل رباطة جأش٠ ان عمله هذا سيكون من باب الحماقة

فسأله الجزار ٠ ولماذا

فتبسم الامير الاي فيليبو عند سماعه سوءال الجزار الدال على الجهل وقال ٠ لان هذا البرج متين البنيان يقتضي هدمه مدافع كبيرة مخصصة للحصار

— واي شيء يضطر الفرنساويين الى اضاعة وقتهم بمعالجتهم هدم هذا البرج٠

— ان هذا الامر من جملة قواعد الحصار ٠٠٠ واما المدفعية فتزعم انها فتحت ثغرة في سور يافا بمدافعها الخاصة

— أ الى هذا الحد يبلغ جهل الفرنساويين



وكأن بقية من عاطفة محبة الذات استيقظت في فؤاد ذلك الخائن الذي جفت فيه موارد محبة الوطن فرنا الى الجزار بعين الاحتقار وقال له . ليسوا بجهلة ولكننا ركبنا مركب الحكمة بمنع روادهم عن دخول المدينة فهل انتم على ثقة بانه لا يوجد خونة هنا .

فصاح مراد قائلا . انا المسؤول عن هذا الامر

— بناء عليه فهم لا يدرون ما يتوقعهم بعد خمسة عشر يوما من هجومهم على البرج الكبير وحصارهم المدينة على غير طائل

فقال القائد الانكليزي . اماثلك على زعمك باحباط مسعى بونابرت ولكن بعد الخمسة عشر يوما ....

— بعد الخمسة عشر يوما يحدث امر بسيط جدا فحين يرى تداعي حصون قوى رجاله يعقد عروة عزمه على مهاجمة الجهة الشمالية او الجهة الجنوبية من السور وحينئذ ننظر اي جهة يقر رأيه عليها

— وماذا نفعل في ذلك الحين

— نقيم حصنا وراء الثغرة نضع فيه امهر رماتنا وحين يتسلق الفرنسويون السور من جهة الثغرة نمطر عليهم مطرا غزيرا من القذائف ونمزق شملهم تمزيقا بعد ان نذبح منهم مذبحة هائلة

— ثم ماذا .

— وبعد ذلك تزحف النجدات المحتشدة على ضفاف الاردن على الفرنساويين المتضعضع امرهم وتضطرهم الى رفع الحصار

— وهل ينكسرون

— لا . لانه لا يخفى عليكم ان الانكليز والاتراك لا يستطيعون ان

يكسروا الفرنساويين ولو كان اليأس قد بلغ منتهى غايته من هؤلاء الاخيرين

وكان هذا التلميح الجارح عن انكسارات المتحالفين داعيا الى اثارة سخط الضباط الاتراك فتولت فيليبو كآبة مقرونة بالخجل . فلما لم يعد في قوس صبرهم منزع ضرب الجزار بيده ضربة قوية وصاح بهول وخولة قائلا ضعوا حدا لثرثرتكم والا ابحرت الى القسطنطينية وتركتكم مضعضعي الاحوال

فهال الجزار ذلك التهديد لانه كان خائفا بطبع غيره من الاتراك ان يرقى امره الى مسامع السلطان فيعلم انه كان جانحا الى القاء حمل سيادته عن منكبيه وسأله مراد بلطف : ولماذا يغادر بونابرت عكاء بعد فتحه ابوابها ودخوله اليها ظافرا

— ليعود الى فرنسا

— اتقول انه يغادر مصر

— يترك كل شيء ليرجع الى باريس

— ومن اين تعلم هذا الامر

— من الانباء الواردة من اوربا ومن معرفتي بما هو منطو عليه هذا الكورسكي من المطامع والاوهام

فقال القائد الانكليزي : اتظن ان انكسارات الجيوش الفرنساوية في ايطاليا

— ان ظنك في هذه المسألة كظني بها وهذا ما يجعلك ساكن الروع يا سير سدني سميث . وانت دار ان مشاغب اجاشيو يريد ان يبرز لفرنسا كمنقذها ويأبى ان يظل محصورا مدة طويلة في الارض التي اراد الهيرا كوار

ابعاده اليها الى ما شاء الله

فانتفض مراد من شدة الابتهاج وعلل نفسه بامال جديدة قائلا • ان مغادرة بونابرت لمصر هي ولا مراء اخلاء الافرنسيين لبلادنا

وقال الجزار • انا ريثما يتم لنا هذا الامر يجب علينا الاهتمام بعكاء والدفاع عنها

فقال فيليبو الذي محا بغضه الشديد لبونابرت ما كان وخز الضمير على خيانته قد خطه على صفحات فوءاده • اتحمل عبء مسوءولية الدفاع عنها على شريطة ان تكون المدفعية والاستحكامات خاضعة لاوامري راسًا

فقال الجزار وهو ناهض للخروج من المجلس • ليكن كما تشاء

وانتهت الجلسة الحربية فجاء ضابط الخدمة في القصر وقال لمراد • بالباب اعرابي يطلب منك •

— اظن هذا الاعرابي حامل لي انباء من ابراهيم

— لا اعلم • وهو يريد مخاطبتك

— انا اتٍ اليه

قال مراد هذا الكلام وسار مع الالباني • ولما انتهى الى الرواق ابصر محمدا فعرفه في الحال وقال له بلهجة المشكك وهو يراقب كل حركة من حركاته • وكيف تمكنت من الفرار من يافا

اختبأت في النهار وتمكنت من الهرب في الليل وها انذا اتٍ اليك

أأتيت لموافاة نجلك عمر

— نعم فاين هو

— اوفدناه بمهمة على ساحل البحر



— ومتى يعود .

— لا يلبث ان يرجع الينا اللهم اذا لم يكن قد قتل

فقبض الاعرابي على مقبض سيفه وهم بالفتك بمراد ولكنه تذكر بارسفال وتجلد . ثم قال وانا ايضا احب التقيد بخدمتك

— اقبلك بسرور وافتخر بمن كان مثلك يجيد الرماية

— احب التقيد بخدمة شخصك .

— ولماذا تحب التقيد بخدمتي دون سواي

— لانك شجاع وغني وجواد ... وانا سئمت نفسي من عيشة البادية وصرت اريد الاقامة في منزل زعيم من كبار الزعماء

— فليكن ما تشاء وابق عندي . وغدا يهيء لك عبدالله ملابس نظير الملابس المتردي بها رجالي فتصير من عداد المماليك لاني لا استطيع نكران الجميل نحوك

— وماذا فعلت معك

— كفيتني في يافا موءونة عدو من الد الاعداء الا تذكر ذلك الضابط الفرنساوي .

فتجلد الاعرابي واخفى فرحه لان امانيه واماني رايموند كانت موشكة ان تتحقق بسهولة لم تكن في الحسبان

وكان راقدا في المحل الذي يرقد فيه رجال مراد فسمع الاحاديث التى كانت تدور بينهم تحت جنح الدجى ولكنه لم يفه بادنى كلمة . فالسر الذي كان راصدا للوقوف عليه لم يكن ليختفي عن ذكائه . ولما طلع الفجر جاء الى قيم منزل مراد وطلب اليه ان يساعده في العمل فارتكب في هذا



العمل خطأ لا يغتفر لان القيم التفت إليه وقال له

انت رجل كاذب تزييت بزي اعرابي لتخدعنا وهذه لاول مرة رأيت فيها اعرابيا يعمد الى مزاولة مثل هذه الاعمال البيتية

فهز محمد منكبيه ودار ظهره ليذهب ويخبئ الاضطراب الذي اصابه عند سماعه كلام ذلك القيم . واذا بهذا الاخير يناديه قائلا . لا بأس من ذلك ... تعال لمساعدتي ... فنحن نستقي ماء من الحوض وانا اساعدك لتحمله الى هذا المكان

فسار الاعرابي بذلة وخشوع وراء القيم . وكان في عرصة الدار جب منقور في الصخر مضت عليه السنين الطوال ويظن انه من اثار الصليبيين .

ولما ملأوا الجرار والقرب حملها الاعرابي الى غرفة مراد التي دله عليها القيم وكان مراد مضطجعا على طنفسة وغائصا في لجة الكرى . فقال له القيم سر معي الان واياك ان تبدي اقل حركة

فسار الاعرابي وراء القيم وهو حامل الجرار المملوءة ماء في دهليز ضيق ومظلم . فاراه القيم باشارة خصيا اسود نائما على عتبة باب وقال له . ضع الماء الى جانبه فيجده عند هبوبه من النوم

فقال الاعرابي بعدم الاكتراث وهو سائر وراء القيم . هل المولى متزوج

— وهل يعنيك هذا الامر

— نعم لان المملوك يحتقر ثلاثة امور . السلم والعمل والمرأة وانا اتأسف لكون مثل هذا الزعيم الهمام ....

— اصمت يا ثرثار وحذار ان تتكلم امام اي كان من الناس عن

مراد . وفضلا عن ذلك فهو غير متزوج ومن المحتمل ان تكون هذه المرأة الحسناء

فاختلى محمد بنفسه قائلاً : لدي يومان استطيع في خلالهما ان اتحقق عما اذا كانت هذه المرأة السرية ابنة ابراهيم المملوك وبعد ذلك اوقف على حقيقة حالها . فان الله يسر لي هذه الفرصة لاتمم مهمتي في وقت قريب

وبينما هو يقلب هذه الافكار في رأسه انفجرت في حديقة القصر قنبلة اطلقها الفرنساويون من مدافع الحصار

منصور

٨

وكان صباح يوم من ايام نيسان معطراً بارياح الازهار والطيوب وكان النحل يحوم على الازهار والطيور تتنقل من شجرة الى اخرى صادحة صداحاً شجياً

فلما انفجرت اول قنبلة في الحديقة اجفلت كل تلك الخلائق الصغيرة وامتلأ الهواء من رائحة البارود فطارت العصافير والنحل واصبحت الورود والرياحين منثرة

وبرز من احد الابواب شيخ عليه هيئة الاضطراب وله لحية مسترسلة على صدره تزيده هيبة وجلالاً فجال في الحديقة نظراً مضطرباً ولما تحقق انه لم يكن ثمت احد دنا من نافذة مقفلة وصاح بصوت منخفض يا وردة



ففتحت النافذة وبدا منها وجه لامع كالشمس يفتن الابصار بجماله الرائع . وكانت الفتاة المصرية ترتجف مما سمعته من انفجار تلك القنبلة ومن الاشباح التي رأتها في الحلم . فقالت بصوت لطيف . أأستطيع البروز الى الشمس . فلا يوجد سواك في هذا المكان يا ابي .

— تحذري يا ابنتي فيبين لي ان قذائف الفرنساويين تستطيع الوصول الى هذا المكان

— هي قنبلة ضلت عن مرماها ... ولكن لا بأس من ذلك فما هو مقدر سوف يحدث ولا محالة ...

— لا استحسن من فمك مثل هذا الكلام الذي يحسن بي التفوه به . فان لوردة الصغيرة الاسباب عينها التي تدعو عمها منصور الى الاذعان والاستسلام للقضاء والقدر

— سكن روعك يامنصور الحكيم وكن ناعم البال من جهتي واسمع لسعيد الاتي من لدن الباشا وبدا الخصي من وراء المصرية وانحنى باحترام امام سيده متبسما تبسما يدل على الابتهاج ثم قال . اجل يامولاي ان النصارى قد اطلقوا القنابل والقذائف على قصر الباشا ليلقوا الذعر في فؤاده ولكنهم ارادوا بهذا الامر ان يحولوا انظارنا عن الثغر التي يريدون فتحها في السور . فالسيد مراد مسرور لان الفرنساويين قد نشبوا في الحبائل المنصوبة لهم بهجومهم على البرج الكبير وتدل قرائن الاحوال انا سنقضي خمسة عشر يوما بالراحة والسكينة

— نعم ويمكنني بدون قلق ان اخليك هنا ياوردة الصغيرة

فصاحت وردة بخوف . الى اين تريد الذهاب . فانا اسير معك ايان

سرت ايها العم القاسي القلب ٠

وركضت الى الحديقـة وراء الشيخ فقبضت على يده متوسلة وقائلة ٠ اذا ذهبت لم اجد لي بـدا من الذهاب معك ٠٠٠

ــ يابنية انا مصمم على مكافحة الاقدار ومناصبـة الاخطار ولا يمكن المرأة اتيان ما انا عازم على اتيانه

ــ ولو تنكرت ولبست ثياب فارسي

فنظر منصور اليهـا مدهوشا وقـال ٠ ان هذا الفكر لم يكن يطرق مخيلتك البتة منذ شهرين ٠٠٠ فاي تغير طرأ عليك يابنية منـذ وفـاة والدك ٠٠٠ والحوادث التي المت بك فاحمر وجهها عند سماعها ذلك الكلام ولم تجبه ببنت لسان وغشت الكابة جبينها وازدحمت في ذهنها تذكارات قديمة ٠ فللحال بادر الشيخ الى مخاطبتها بالكلام الاتي بلهجة ابوية ٠ لا انحي عليك باللائمة بشيء من الاشياء ولا اعاملك بنفس القساوة التي يعاملك بهـا مراد لانني احترم احزانك

ــ وهل تريد ان تتركني وحدي معه

ــ او ليس هو العضد الطبيعي لك بعدي والصديق الامين

ــ انه يقذف الرعب على فؤادي فان عنفه بدون سبب وظنونه ٠٠٠

ــ انه يحبك محبة شديدة ٠ الا تزالين مصرة على غيك

ــ لا شيء يستطيـع ان يقوض دعائم عزمي

ــ الا تريدين ان تصيري له زوجة ٠

ــ لا ٠ لانه لم تأت الساعة بعد لهذا الامر ولست متعودة ان افتكر بمثل هذا الفكر ولا اقدر ٠٠٠٠

— ومع ذلك فانك تصيريني سعيدا ... وناعم البال ...

— انا اسف لانني لم اعد تلك الفتاة التي اعدها جنسها وشبابها لكل مقتضيات اللين ...

ويحا للفرنساويين الطغام فقد افسدوا كل ما مسوه ... لقد كنت عائشة عيشة راضية في الكرنك قبل غشيانهم لتلك الارض وكنت خطيبة لمراد ...

— لا اعلم ولم اعد اعلم شيئا

— نعم فمنذ الحين الذي دنست فيه انظار الفاتحين نفسك فارقنا فكرك مع ما كان من تطهير النار ومياه النيل لتنقيته

— بما انك تراني ضعيفة فابق عندي او فخذني معك

— لا يمكنني اجابة سؤالك لانهم ينتظرونني في بيروت . ومن هناك يقضي علي ان امضي الى طبريا لموافاة مولاي ابراهيم بك على ضفاف الاردن حيث احتشدت جيوشنا

— لماذا لا ترسل مرادا الى شيخ البلد

— لقد صدرت اوامر المولى فلابد لي من الطاعة ... فسهلي الطريق المؤدي الى تتميم واجباتي وعديني بانك لا تستقبلين مرادا بوجه عبوس

— يجب عليه والحالة هذه ان لا يخاطبني البتة عن بغضه ... فانا احبك واحترمك لانك لست حقوداً ...

— هو شاب حاد الطبع ... وهو لا يعيش الا لاجلك

— ولاجل اطفاء نار البغضاء من فؤاده باهراقه علينا نار الانتقام

وانا ادري . . . صمتت ولم تعد تكمل حديثها واغمضت عينيها لان صورة رايموند تمثلت لذهنها

فقال لها منصور مدمدما من يالالم يمد القلق يجري في قلب البنة وقد لانت نفسه الحرية وهو لا يفكر الان الا بالعودة معك الى مصر

ـ بعد ان يفني الفرنساويين

ـ لماذا تدافعين عنهم او ليسوا اعداءنا

فاجابته بكلمة كانت ظلت لكلمة سمعتها قبلا وانتفضت عند تذكرها وقالت . انهم بشر مثلنا . فالتفت اليها المملوك الشيخ بحنو لان صوت نفسه الداخلي كان نذيرا لـه بقرب تصرم حبال حياته وقد تذكر انه كان مماثلا لابن اخيه مراد على بغض الفرنسويين والعزم على اباداتهم وبينما هما على تلك الحال واذا بصوت ينادي بلهجة الامر ياسعيد

فارتعشت وردة تقلبا على وجهها وقالت بمرارة هوذا مراد

وجاء مراد ونور الشبيبة يفيض من وجهه فتقدم الى الفتاة بعد ان لثم يد منصور وقال لها . ياوردة الحب في سعيد انك هنا فاتيت لاسكن بالك واقدم لكي خدمتي فنحن يمامن من كل نائبة . أ استطيع ان اخدمك بشيء من الاشياء

ـ اشكر لك كرم اخلاقك فلست بحاجة الى شيء

فلم ترق مراد نشوفة وردة ولما الح عليها بكلام التجمل استأذنت بالانصراف . فقال منصور الا ترى يامراد انك لا تحسن التصرف مع هذه البنية لاستمالتها اليك . . . فلا يحسن بك ان تتحدى مثل هذه الطريقة لخاطبة عذراء يجري في عروقها دم المماليك الكريم



ـ اصبت ياعماه ولكنني في هذه المرة ساثأر لنفسي من مقاومتها بتجلدي

ـ اشك في كلامك فان خلقك ..

ـ واحقق لك ان وردة لايمكن ان تكون لسواي لاني ازلت الموانع ..

ـ وما هي هذه الموانع

ـ ان ذلك الفرنساوي الذي كلمها عند بئر الكرنك ... قد قتله

ـ وكيف اقدمت على اقتراف جريمة القتال

ـ قتل في اثناء معركة يافا . فالرامي الماهر الذي اخبرتك عنه رماه برصاصته وقتله

ـ امحمد قتله

ـ لقد كفاني موءونة الاهتمام به

ـ وهل تعلم ذلك

ـ لا ولكنني ساجعلها تدري هذا الامر من اول اسير يقع في ايدينا

ـ وهل هي ناقمة عليك

ـ وكيف تعلم اني دفعت القاتل الى الرمي عليه ... وفضلا عن ذلك فهي بنية لا تدري شيئا . فهذا الرجل القى الاضطراب في فوءادها لان هوءلاء الغرباء ذوو السنة حلوة فهم يتكلمون كما كان يتكلم الاقدمون الذين نطالع حوادثهم في الاساطير .. فهل هي تفتكر به

ـ من المحتمل ان لا تفتكر بشخصه ... ولكنها تفتكر باشياء مبهمة ... فان ريحا جديدة تهب على نفسها ... فعاملها باللين والتوءدة

ـ اني احبها

ـ انا اكل امرها اليك ... وبعد ثلاثة اسابيع على الكثير نعود بها

الى مصر

— ابطريق الصحراء نعود

— لا· لاننا نلقى فيها مشقة عظمى وما عدا ذلك فان جنود المسيحيين يكونوا منتشرين في كل الطرقات بعد تضعضع احوالهم

— ايجري في وهمك انهم سينكسرون

— لا أعلم · ولكنهم سيبرحون هذه النواحي ليرجعوا الى مصر

— وماذا يحل بنا

— ان المستقبل سيعيد الينا اراضينا وحكمتنا القديمة · فالله قد عاقبنا على المعاملة العنيفة التي كنا نعامل بها الفلاحين ··· وقد قال لي سعيد في الصباح ان الاعرابي محمدا سيكون اطوع لك من بنانك على شريطة ان تهبه ···

— مبلغا وفيرا من الذهب الوهاج فالنضار اقوى محرك لقراصين البادية·

— اخطأت في وهمك فان هذا الرجل لا يبتغي منك الا ان تمهد له سبيل الاجتماع بنجله

— سأنيله سؤاله · فحين يرفع الفرنساويون الحصار عنا يذهب لموافاة عمر ابنه

— وهل تدري مقره

— نعم · لاني انا ارسلته اليه ···

ولما اقبل المساء ودع منصور الجزار بعد ان ودع وردة واوصى مرادا بالعناية بها وركب متن سفينة انكليزية قلته الى بيروت · ومنها كان ينوي المسير الى وادي الاردن بطريق دمشق · فشيعه الى المرفأ كل ضباط

جيش الجزار وخدامه . ولما صعد الى المركب دنا منه ضابط تركي واشار الى اسلحة قائلا له . ان مولاي الباشا يرجو منك ان تسلم ابراهيم بك الهام

— منه الاسلحة التي يرسلها اليه

وكان مملوك شيخ يحملها فاسترقت وجهه انظار منصور حين رآه لابسا ثياب خدام مراد وكان يخجب منظر الكآبة المنبعثة من هيئته ولحيته البيضاء القصيرة وهيئته الدالة على اذعانه . فقال له باسما وهو يناوله كيسا من الدراهم . اولست انت محمد اجندي ابن اخي الجديد . شكرا لك .

— نعم يا مولاي انا هو محمد

— انا اعلم انك اب حنون وجندي شجاع فقبل مزايلتي لهذا المكان اوصيك ان تسهر بمقلة اليقظان على وردة ابنة اخي اذا لا سمح الله اصيب مراد بداهية . فنظر محمد الى منصور مدهوشا من تلك التوصية الغريبة التي كانت في وقت واحد تبوح له باسم المصرية وهويتها ووجودها في القصر . فتبسم منصور وقال ما لي اراك مدهوشا من سماعك كلامي فلم انظر على مقربة مني سواك يمكنني ان اركن الى حكمته ليجري رغبتي . وانا واثق بقلبك الابوي بصيانتها فهي قريبة يعوزها البيان عمر

— ومن قال لك ...

— مراد

فقال محمد في نفسه وهو يحرق الارم ويحنا له من خشي لقد تجرأ على الهرب بهذا الشيخ الجليل

ان وردة بنيته فاسهر عليها يا محمد . والآن استودعك الله .

وعاد الاعرابي الى القصر وهو يتعثر بذيل الاضطراب وكان

سعيد قد سمع منها ما دار بين منصور ومحمد من الحديث فهرول مسرعا الى وردة وقص عليها كل ما جرى فقالت له المصرية ادعني الى هذا الجندي الشيخ ٠ واظنه رجلا كريم الاخلاق لانه عمي ولا اعرفه

— انظري يامولاتي اليه فانه يبقى مطرقا الى الارض في فناء القصر وان علائم الكآبة منتشرة على جبينه

— ولكن السيد مرادا

— قل له اني اردت انا هذا الامر

فاطاع سعيد وجاء بمحمد الى وردة ٠ فعرف الاعرابي تلك التي كان رايموند قد حدثه عنها من سماعه نبأ الرخيم وقال في نفسه ٠ هذه هي بعينها وعليه فان رايموند سيتشجع ويشدد الحصار وسوف يسقط مراد في ايدي اعدائه ٠ لان سذاجة ذلك الاعرابي كانت تجعله ينسب الى بارسفال قوة فائقة الطبيعة لانه نجا من الرصاصة التي رماه بها ٠ وسألته الفتاة قائلة ٠ وهل اوصاك عمي بان تسهر علي

فاجابها الاعرابي بعد ان لمع في فكره وميض قصد خفي ٠ بعد مراد

فلم يرق وردة ذلك الجواب ففكر الاعرابي بابتهاج بان وردة تبغض مرادا وقال في نفسه ٠ ساحب هذه الفتاة كما كنت احب عمي لما كان في السادسة عشرة من عمره

وسألته الفتاة مبتغية بذلك سبر مقدار اخلاصه ٠ وماذا تفعل اذا فتح العدو المدينة واسرني

اجابها وهو يظهر جدا كاذبا ٠ اقتلك ٠ ثم قال بكياسة ٠ ان انت شئت ذلك

فصاحت وردة بعد ان لاكت جوابه في رأسها وتبسمت عند سماعها منه ذلك الكلام الدال على شدة التعصب . لا . فانا انهيك عن اتيان مثل هذا الامر نهيا باتا ... فلتكن مشيئة الله

وكان يلوح من وراء اعتراض تلك الصبية بارق امل مبهم وخرج محمد وهو يفكر في الغبطة التي سيصيبها رايموند حينما يقص عليه ما كان بينه وبين وردة . فناجي نفسه قائلا . انها تحبه . ولثم باحترام اردان الفتاة التي صرفته من عندها باشارة حبية

خدعة الحرب

٩

وكان ما توهمه فيليبو قد اصبح حقيقيا لان هجمات الفرنساويين الاولى على البرج الحديدي كانت وخيمة المغبة عليهم لاضطرارهم غير مرة الى الانحدار تاركين في خندق السور تحت الانقاض نحوا من ثلثي عددهم . وعاد رماة البنادق القصيرة وجنود الفصيلة الفنية الذين يقودهم كافارلي بعد ان صاروا الى شرّ مصير

وقال بونابرت . قد جرى في وهمي وجوب اجراء هذا الحصار بطريقة قانونية ومن ثم فانا لا نرى لنا مندوحة عنه . ولنا من ورائنا نجدات متواصلة من الدروز والعرب

وكان الفرح عظيما عند المحاصرين ما عدا رجلا واجما كأنه مستاء من الفوز الذي اصابوه فانفرد في قمة السور وكان الناظر اليه يتوهم لاول

وهلة انه يعالج ان يقــذف بنفسه الى اسفل السور الذي احسن الدفاع عنه٠ وكان ذلك الرجل فيليبو بعينه

فقال الجزار الى سدني سميث٠ الا تنظر هذا الرجل فاني اخاله يتعمـد الحربية التي توخى هو بنفسه انتهاجها بمغادرتنا لكي يوقف العدو على الخطة

ــ ما دام بونابرت قائدا للجنود الفرنساويين فلا خوف علينا من انضمام فيليبو اليه

ــ وهل بلغ منه البغض لبونابرت مبلغا عظيما

ــ انه يبغضه من صميم فؤاده ٠وهل تظن انه يساعدنــا لكي نربح الخمسة عشر يوما اللازمة لمجيء اسطول رودس وجيش جوردان لنجدتنا ٠٠٠ فهو لا يهمه هذا الامر كثيرا ولا يجول في خاطره الا هدم مجد بونابرت لانه يحسده حسدا عظيما

ــ ولماذا

ــ لا يخفى عليــك ان فيليبو فرنساوي تخرج في مــدرسة باريس الحربية وكان في نفس الصف الذي كان فيه بونابرت اي صف مونج وقد امتحنهما لابلاس في وقت واحد وسماهما ملازمين في فرقة المدفعيين منذ اربع عشرة سنة ٠٠٠ ويقال ان بونابرت لم يمكنه ان يهاجر في الثورة لافتقاره الى النقود وخلوه منها ٠ ولم يستطع فيليبو وغيره ان يهاجروا للسبب عينه وفيليبو مهندس بارع وهو يعتبر نفسه ارقى من قائد جنود اعدائنا ٠ وقد عاد الى فرنسا منذ سنتين في اثناء حادثة فركتيدور وكان رجوعه اليها لحسن حظي لانه سهل لي طريق الفرار من سجن الهيكل وكافأته انكلترا على عمله هذا بتسميته امير الاي في جيش الشرق ولكنه كان يؤمل الا يعرض له ان يقاتل مواطنيه

... وقد اشتد بغضه لبونابرت لان هذا قد جعلهم مستهدفين لنبال العطب على يده

فقال الباشا بلهجة المتكبر · يجب ملاحظة هذا الرجل لان تبكيت الضمير يمكن ان يقوده الى اجراء امور لم تكن في الحسبان

— اظن انه يسعى للقذف بنفسه في لجة الوبال ولعمري ان فقده سيكون خسارة عظمى علينا لان الاميرالاي دوغلاس الذي يخلفه لا يدانيه في شيء من الفنون الحربية

وفي ذلك الحين برح فيليبوالسور وسار في الشارع الاعلى وكان الانكليزي والباشا يرصدان حركاته فقال لهما وهو يحرق الارم · ان هؤلاء المغترين يتعرضون للهلاك هذه المرة ايضا باستئنافهم الهجوم على ثغرة لم تعد موجودة بادوات ضعيفة وصفوف متلززة لا تخطىء مرماها القذائف المرسلة عليها من بنادقنا ··· سحقا لهذا الرجل بونابرت من مغفل لا يروى من شرب الدماء · وابتعد عنهم مسرعا لكي لا تعود عيناه تنظران مشهد تلك الشجاعة المغرورة · وقال القائد الانكليزي · اذا لم يقتل هذا الرجل على الثغرة فهو ولا مراء مائت من فرط الحنق

وكان مراد مهتما بتزيين مثوى وردة في القصر وسهران عليها بمقلة اليقظان · وكان سعيد ومحمد مقيدين بخدمة المصرية وكانت هي دائمة التفكير تحاذر ان تدع احدا يطلع على مكتومات ضميرها · وكانت تسمع دوي اصوات مدافع الفرنساويين القاذفة قنابلها على المدينة فيقذف الذعر على فؤادها · ولكن الناظر اليها يدرك لاول وهلة انها مهتمة بالمعركة اهتماما عظيما · ولما علمت ان الجزار يعامل الاسرى الجرحى بقساوته المشهورة

ويقطع رؤوسهم استاءت استياء شديداً وقالت لمراد . انى يستطيع هذا النذل ان يقتل الاسرى الجرحى .

وكان مراد وهو يسمع صوت تذمر وردة يظنه صدى فكر غريب . فتمثل لديه حنق ديزه وبارسفال ... ولكنه تبسم تبسم الظفر عندما افتكر ان رايموند قد مات ... ولم يعد يهمه منذ ذلك الحين فصاعدا صدى مبادئه في نفس وردة ... ومع ذلك فقد شعر بغيرة مرة كان يخفيها تحت ستار اللطف واللين وقال في نفسه حين تصير زوجة لي اخمد في ذهنها لظى ذكره .

ولم يشعر بان لطفه الذي لم يكن قد تعود معاملة وردة به كان داعيا الى اضطراب افكارها . فجعلت تسائل نفسها عن سبب تسلطه على امياله

واراد مراد ان يروح خاطرها فدعا محمدا الى السور واحب ان يري وردة حذاقته في الرماية فدل الاعرابي على جندي فرنساوي واقف في مكان بعيد تقصر قذائف الاتراك عن الوصول اليه وقال له . ارم هذا الجندي

ولم يكد مراد يتم كلامه حتى انطلقت رصاصة من بندقية الاعرابي فهوى الجندي الفرنساوي الى الحضيض وقد اصيبت خوذته بالرصاصة المذكورة

فقال له مراد وقد بدا عليه الاستياء . لماذا لم تقتله

— لم ابصره جيدا ... وان عمر الذي له نظر حاد لا يخطيء مثل هذه الرمية فهو يفوقني في الرماية

وكان ذكر الميت يحبس دائما لسان المملوك عن تتمة سوءالاته فشرع يتأسف على معاملته لعمر بتلك القسوة التي جرت اليه حتفه ويشعر بوخز الضمير

وعند المساء دنا القائد لان من السور الذي كان المصريون كامنين وراءه فامر



مراد الاعرابي بان يقتله ... فاطلق عليه رصاصة خرقت الورقة التي كانت بين يديه . فصاح بــه مراد مغضبا . انك اردت هذه المرة الابقاء عليه .

— نعم لاني لااشاء قتل الناس غيلة ...

— ومع ذلك ...

— نعم انا ادري ... ان ذلك كان في وقعة وكان الموت يتهددنا

وكان هذا التلميح عن رايموند داعيا الى افتكار المملوك بوردة . وهي ايضا مع ما اتته في منزلها من قتل الجندي الفرنساوي صارت الان تنكر اغتيال الناس على غرة . وكان كل من منصور ومحمــد ووردة يتكلمون بلهجة الصفح وكرم الهزة الا ان مرادا كان يستاء من كلامهم هــذا وصاح بالاعرابي قائلا له . من الان فصاعدا تقيم مع سعيد

فلم يجبه محمد ببنت شفة بل رفع بندقيته الى كتفــه واطلق عيارا ناريا على الفرنساويين فهنأه المماليك على اصابته ضابطــا من اركان حرب اعدائهم وقف في الموضع الذي كان القائد لان برحه منذ حين قصير

فصاحوا باصوات التكبير . اصبت وقتلته ...

وكان محمد ممتقع الوجه فانحنى فوق السور وجعل يتفرس لعله يتبين شيئا من احوال الاعداء ثم انــه وقف منتصبا وعلامات السرور باديــة على محياه اذ ابصر عند اسفل السور حساما يضرب بندقيتين كانتا مصوبتين عليــه ... وكان ضبــاط لان مــن وراء الاستحكامات ينظرون مــن حيث لا يبصرون الى الواقفين فوق رؤوسهم ويفحصون السور فقال لان . لمــاذا تمنعون رماتنا عن رمي هذا الجندي الهائج وصرعه ... لقد اخطأنا كلينا وهذا مما لا يمهد لنــا عذرا للتجاوز عنه ...

ـ لقد اخطأنا عمـدا ياسيدي القائد

ـ وكيف كان ذلك

ـ لكي ينذرك بوجوب العودة الى مثواك ولكي يذكرني عند بروزي من مخبأي ان خروجي منه لا يجديني نفعا

ـ ومع ذلك فان هاتين الرصاصتين المصوبتين ...

ـ ان الاولى عطلت المصور الذي كان في يدك والثانية مرت بين يدي. ولو كان محمد يتعمد قتلنا لما اخطأنا البتة

ـ اهذا اعرابيك ... ولكنه متزي بزي مملوك

ـ ليتمكن من خدمتنا كما ينبغي له ان يخدمنا

ـ أ انت واثق بهذا الامر ... الا تراه يدل عليك ...

ـ سالقاه هذه الليلة على ضفة نهر فردانه

ـ خـذ معـك خفراء يضمنون سلامتك يابارسفال

ـ ان هاتين الرصاصتين السلميتين تنبئاني باني لا احتاج اليهم البتة

ـ اسد له الشكر من قبلي عن الرصاصة التي رماني بها ولكن الرصاصة التي رماك بها كان يمكنه الاستغناء عنها

ـ كنت قد اوشكت ان ابرز للعيان فذكرني باني استهدف لسهام المنية وانهم يرون اني قد قمت من بين الاموات في مدة قصيرة

ـ لا ادري شيئا من دسيستكما السرية ولكن يسرني ان يكون لنا في المدينة شخص نعتمد عليه . فغدا نعلم سبب اخطائه ايانا

وكانت اول كلمة فاه بها رايموند عند التقائه بمحمد تلك الليلة. «وردة» وكانت الكلمة الثانية وهو يضغط بكلتا يديه على الاعرابي . « شكرا لك »

— اتشكرني قبل ان اقول لك ..

— لا ولكنني اشكرك لانك في هذا المساء قد انقذت حياة قائدي ومنعت مراد عن اكتشاف مخبأي بتحذيرك اياي في الحين الملائم ...

— هذه هي المرة الثانية التي قتلتك فيها

— وكيف حال وردة ... فكأنني بي ارى في عينيك ...

— اني مقيد بخدمتها

فتبسم بارسفال وهو كالنشوان لان برقع الكآبة الذي كان مرخى على جبينه منــذ ثلاثــة اسابيع سقط للحال وقال للاعرابي الامين . قبل ان تحدثني عنها قل لي لماذا نصيب دائما الفشل في هجماتنا .

— لا ادري السبب

— الم يذكروا شيئا عن هذا الامر امامك

— لم يذكروا شيئا البتة

— وكيف حــال الاسوار من الداخل .

ان ذلك الاعرابي الخبير في كل ما يقع تحت عينيه في الباديــة كان والحق يقال يجهل تماما ما كان فيليبو قداعده من وسائل الدفاع والحصار . فقال بارسفال . لا مندوحة لي عن الدخول بذاتي الى المدينة للوقوف على حقيقة الحال فيها

— وهل تدخلها بهذا الزي

— لا . فغدا عند دخول الليل اجيء الى هــذا المكان وانت تدخلني المدينة

— وكيف يكون ذلك

— ابحث انت لتدبير هذه المسألة وانا سافتكر بهذه القضية . وعند الالتقاء نقرر الخطة والواجب علينا انتهاجها

— فلتكن مشيئتك

— والان حدثني عن وردة ... فكلي اذان مصغية

فقص عليه محمد ما شاهده في اثناء اقامته في قصر الجزار ووصف له موقع ذلك القصر واجاب رايموند على كل الاسئلة التي القاها عليه

وكان بارسفال يسأله بدون انقطاع مسائل كثيرة لا اهمية لها في حد ذاتها وفي اخر الامر تبرم الاعرابي من تلك الاسئلة . ولما قال له رايموند بلهجة الامر . قل لوردة ...

اجابه الاعرابي بازدراء . ويحالك من مغفل الا تعلم ان مولاتي الشابة اذا حدثتها عنك فضحت امرنا وكشفت الغطاء عن حقيقة حالنا

— ولكنها لم تنسني بعد

— من الممكن ان يكون الامر كما تقول ولكن هل فاتك انها مسلمة

— لا بأس من هذا الامر

— وفضلا عن ذلك فلو كنت انت بذاتك هناك للدفاع عن نفسك ولو كانت هي تنظرك في الحالة التي انظرك انا فيها ...

— في الليلة القادمة استطيع ..

— الا تعلم ايها التاعس الجد ان قصر الجزار كهف لم يخرج منه مسيحي حيا منذ بضعة ايام ما عدا الخونة

— وهل تعرف الطرق المؤدية اليه والمنافذ التي يخرجون منه بها ومجاري المياه الجارية اليه والحدائق الغناء المطيفة به

— نعم وقد بحثت عن كل ذلك لكي اهديك الى مقر مراد عند هجومكم على المدينة وفتحها عنوة

— اراك لا تفتكر الا بانتقامك منه

— وانت لا تفتكر الا بحبك لها

ولما لم يعد في قوس صبر بارسفال منزع اختصر الحديث بقوله . انا محتاج الى الاختلاء والتفكير . . . . فعد الى المدينة واعد كل شيء الى الغد . . . فمن الممكن ان اقيم بمثابة كمين فصيلة من رجالي تحت السور لتسلقه على السلالم التي ننصبها عليه .

— لبئس الرأي رأيك

— ولماذا

— لان السور عال جدا ولان الخفراء القائمين على الحراسة كثيرو العدد . . .

— غدا اعيد النظر في ما يجب علينا اجراءه وحينئذ يصير كل شيء متعلقا باعادة نظري . . . ولكن المكان الاول في عملي يجب ان يكون لواجباتي الجندية والمكان الثاني لواجباتي الانسانية التي تدعوني الى تمهيد سبيل السلام

— الا تسعى لروءية وردة

فاضطرب بارسفال عند سماعه اسم وردة وقال بصوت متلجلج . بلى وردة . . . ولكني ارجيء امر الاهتمام بها الى بعد غد حين اكون قد فرغت من واجباتي نحو وطني . . .

— حسنا قلت يارايموند فانك شجاع حازم ولسوف تصيب فوزا مبينا

واندفع رايمونـد نحو المعسكر واعطافه تترنح من نشوة الحب والامل وكان صفد واقفا وراء ذينك الرجلين. فودع الاعرابي وانصرف ولكنه قبل ان ينطلق قال لمحمد . مابال هذا السيدفانا استغرب مشيته

— كان فيما مضى رازحا تحت عبء السنين نظيري فقلت لـه كلمة واحدة فعادت اليه شبيبته . وقد علمت بالملاحظة ان هؤلاء الفرنساويين نساء في مواقف الحب وليوث في مواقف القتال .

في غار النمر

١٠

وكان بارسفال وصفد مختبئين بين آجام قردانه في ليلة حالكة الاهاب وقد مضى على مكثهما في ذلك المكان ساعة من الزمان فعيل صبر بارسفال ومل الانتظار وقال اذا طالت مـدة انتظارنا اخفق مسعانا لان القمر لايلبث ان يطلع ... فقال له البحار . اصغ وكان صوت خفيف اتيا من النهر كأنه خفيف الريح بين الاشجار . فقـال بارسفال . ان الخونة قـد خدعونـا ونصبوا لنا كمينا

وكان هذا الفكر قد طرق مخيلة بارسفال قبل سواه ولكن جأشه سكن عند رؤيته صفد ساكنا آمنا . فقال صفد . ان رجلا ولا مراء يصعد النهر بزورق وارجح انه محمد وهو يفتش عنا وهاءنذا اسعى بنفسي لاتحقق هذا الامر

وسار زحفا على بطنه بين الادغال تاركا بارسفال وحده وواضعا يده على

ديك غدارته وهو يقول في نفسه . واذا اراد هذان الرجلان الايقاع بي .
واقام في مكانه متهيئا للدفاع عن نفسه ولكن نفسه لم تكن شديدة القلق لان ذينك الرجلين كانا يبديان له منذ اسبوع من الزمان شواهد عديدة على اخلاصهما له

وسمع حفيفا بين الادغال فالتفت ورأى صفد عائدا ووراءه شبح وقال مناديا . « يامحمد » وقد تولاه الخجل لاساءته الظن باخلاص ذلك الاعرابي الشيخ

ونظر محمد الى بارسفال فابصره لابسا ثياب بدوي من سكان البادية ولم يكن احد يشك في كونه من اهل ذلك الاقليم . واما صفد فلم يكن محتاجا الى التنكر لانه كان لابسا ثيابا سورية . فقال رايموند . انت آت في زورق وهذا يدلني على انك تحديت خطة نهائية وان خطتي لم يكن المسير عليها ممكنا

—اليك المنهاج الذي توخيت انتهاجه ويمكنك نبذه اذا لم يرقك فبعد هنيهة من الزمان اي عند طلوع القمر يصبح دخولك المدينة متعذرا ان بمفاجأة احد الخفراء لك وان بتسلقك السور تحت ضوء القمر . وقد استأجرت مركبا في المرفأ مدعيا بأني اريد ان اجيء الى السفينة الانكليزية بتاجرين ينتظرهما القائد الانكليزي وحينئذ دخلت النهر وقاسيت مشقة عظمى لاني لا احسن التجذيف ...

—ولكن ماذا نفعل بذينك التاجرين

— انا نقذف بهما الى البحر ونأخذكما بدلا منهما ... وصفد يأتي معنا فالبحر وطنه

وقال رايموند · لا يحسن بنا ان نقتل ذينك الرجلين

— سنرى ما يقضي علينا فعله بهما

— اذهب معكما بكل سرور

وسار محمد ووراءه رفيقاه ولما وصلوا الى النهر وجدوا الزورق مربوطا بشجرة عند الضفة وفيه رجلان ينتظران وهما متجلببان بردائيهما · وكانا الرجلين اللذين تكلم عنهما الاعرابي فنظر بارسفال اليه والجزع بالغ منه · فقال له محمد · مهلا ياصاح

ودخل الزورق ورفع الجلبابين عن مناكب الشبحين الجامدين والقى في الماء الواحد تلو الاخر ذينك الشبحين الصامتين وقال · هما مصنوعان من الخشب · وناول رايموند وصفد الجلبابين المتجلبب بهما الشخصان الخشبيان · فتعجبا من دهاء ذلك الاعرابي · ثم سار بهم الزورق في عرض البحر ولما اقتربوا من المدينة قال محمد لرايموند · نصعد كلانا الى عكاء واما صفد فيبقى في الزورق وينتظرك ليعود بك من حيث اتيت · واذا لقينا خفراء اتراكا وسألونا عن هويتنا فانا اجيبهم على اسئلتهم وان لقينا جنودا انكليزيا فانت تجاوبهم بالافرنسية لان كثيرين من مساعدينا في لبنان يتكلمون بلغتك بلهجة تعرفها ويجب عليك ان تقلدها

— الا يوجد نظام خاص للمحافظين على السور

— لا ادري ونحن سنقتفي اثرهم في المرفأ الى البرج الحديدي الذي ترمي مدافعكم قنابلها عليه · فقال رايموند · ان هذا الامر قد تقرر

وصمت منذ تلك الدقيقة فتمثلت له شبيبته وكل ما لقيه من غابر ايامه من المكافحات والمعاكسات وتراءى له ان الساعة التي اوشكت ان تدنو كانت

من اجمل ساعات حياته • فكان مغررا بنفسه بذهابه الى غار الـد اعدائـه لاكتشاف سره • ثم اغرق فكره في محاسن وردة وجمالها الفتان • فهي وان صارت قريبة منه الان فقـد اصبحت بعيدة جدا عنه • ولم يكن خائفا من التجربـة التي كانت بالامس توهي صروح عزائمه لانه ادرك برباطة جأش وشدة صريمة انه لا يوجد شيء في هذا العالم يستطيع ان يقف في وجه تتميم واجباته الجندية • ولم يكن الان يهمه سوى امر واحد وهو ان يسرع بعـد دخوله مدينة عكاء مهرولا الى مضرب بونابرت ويدله على الثغرة التي يمكنه توجيه قوته اليها في الحصار

وكان القمر يرتفع من وراء جبل الكرمل ويلقي اشعته على المدينة والمرفأ والدخان يصعد في المدينـة من بعض انحائها حيث كان الخفراء قائمين على الحراسة • وكانت عينا بارسفال تجولان في ذلك المشهد كله فتعظم اهميته عنده بافتكاره انه بواسطته يحتمل ان يستولي في الغد الفرنساويون على تلك المدينة وينصبوا على اسوارهـا رايتهم المثلثة الالوان • ورأى ايضا نجمة صغيرة كان نورها الضارب الى الزرقة يضيء في جناح احسود بقصر الجزار وكان يحب ان يتصور انها تنير رقاد وردة الهني وتبسم عند تصوره الشعاع الحبي الذي ترسله الى زورقـه • وكان الزورق ينساب على متن الامواج سائرا بين السفن الانكليزيـة ميمما بكل جرأة سفينة القائد الاكبر • فانتهرهم احد الضباط من السفينة بلهجة عربية اعجمية فاجابه محمد قائلا • خرجنا للصيـد امتثالا لامر مولانا الجزار

— الا يخاف الجزار ان يصطاد بشباكه الجثث التي قطع رؤوسها هذا الصباح

فارتعشت اوصال بارسفال عند سماعه كلام الضابط الانكليزي وتراءى له ان بقعا من الدم الفرنساوي تتسع دوائرها على ضوء القمر في البحر

وعند دنوهم من موءخر السفينة « تيزه » سمعوا محاورة بلهجة شديدة فقد كان عند القائد مدعوون الى متن مركبه يتناولون العشاء بهناء وغبطة فاستاء بارسفال كل الاستياء من تلك الحال لان الجنود المحاصرين كانوا في اسوأ حال وكان كل شيء ينقصهم حتى ان الماء كانوا ينا ولونه بالكيل . ومر بارسفال ورفيقاه بجانب السفينة فسمعوا جلبة اصوات المدعوين وقهقهة ضحكهم واحاديثهم وكان القائد سدني سميث يقول لفيليبو . ان شئت الشرب معنا على اندحار الفرنساويين فانك ولا مراء لا ترفض الاشتراك معي بالشرب على انكسار القائد بونابرت

فقال الخائن بصوت جعل بارسفال ينتفض من شدة الحنق . اخطأت ياحضرة القائد فانا لا اتمنى انكساره البتة ولكن موته ... فليس الامران متساويين تجاه وطني ...

— حين يسقط اسيرا في ايدينا وينقل الى متن سفينتي الا تظن انه يصبح ميتا كأنه قد قتل بالفعل

— بلى فان سقوطه اسيرا في ايديكم لاقبح من موته ولذلك فانا اتمنى من صميم فوءادي ان اراه ناشبا في حبائل اسركم

وشرب فيليبو الخمرة وكسر الكأس ورماها في البحر وصمتوا عن الكلام هنيهة من الزمان كأن ريح بغض شديدة هبت عليهم فجمدت شفاههم عن التكلم فسمى محمد فيليبو لبارسفال فقال هذا الاخير انه شقي . ولكن الا ترى في حنقه وخيانته عقابا عظيما له

ولما بعدا قليــلا اوقفهما زورق تركي فتلفظ محمد باسمه امامهم برباطة جأش ولبث سائرا فقال احدهم . هذا رامي مراد

— نعم وابنه عمر يماثله في اجادة الرماية

وكانوا يضربون المثل بهما في حسن الرماية فكان للكلام الذي سمعه محمد وقع اليم في فؤاده ولكنه افتكر انه كان في وسعه ان يفعل لاجل عمر نفس الشيء الذي يجريه لاجل رايموند ولذلك خف قليلا عبء الكآبة عن منكبيه

وخرجوا الى البر في احدى زوايا المرفأ دون ان يلقوا ادنى مقاومة وجعل صفد يهتم بتهيئة الزورق للعودة به بسرعة وتمدد فيه كمن يريــد النوم وكان يدري ما يجب عليه اجراءه عند مفاجأة العدو بامر لا تحمد عقباه . وتوغل رفيقاه في تيــه من الشوارع الضيقة يكثر فيها مرور الناس وكان وجودهما فيها كثير الخطر عليهما ولكنهما لم يترددا في شيء وظلا سائرين لا يلويان على شيء وكان تسليم الاعرابي للقضاء والقدر شديد التأثير على رايموند الذي كان ينعم النظر في الطريق الذي يمر به ويفحصه جيدا لكي تتسنى له العودة به

ووصلا الى مكان جمعت فيه عجلات عديدة ومدافع كثيرة قديمة العهد لــم تكن تصلح للاستعمـــال واستحكامات جعلت هناك بامر فيليبو وجاء اليهما رجال من العسس الانكليزي فتفرسوا فيهما ليتبيناهما . وكانت سحنة بارسفال التي اثرت فيها شمس تلــك الاقاليم والتجارب المختلفة التي المّت به ملائمة لذلك الرداء العربي المتجلبب به واضطر الى مجاوبة الانكليزي على اسئلته باللغة الافرنسية بلهجة لم يتمكن هذا من فهمها ولكن اسماء الجزار ومراد

ومنصور ورباطة جأش ذينك الرجلين سكنت خاطره من جهتهما فتركهما يمران امنين

وقال محمد . ان الاتراك لايجولون كثيرا في الليل ولكن هذه العادة غريبة الفها حلفاءونا وحين نصعد الى السور تكتنفنا مصاعب اشدوا جسم فحينئذ دعني اجاوب على الاسئلة التي تلقى علي

— وان هم خاطبوني

— يجب ان يظن الجميع انك ابني عمر واذ لك عدت هذه الليلة من يافا

— ذلك يمكن ان يتم اذا لم نلتق بمراد

— فحينئذ ينفضح امرنا ولا اعود اجد لي بدا من الايقاع به والاسراع بالفرار

وكان رايموند يفكر في المهمة المندوب اليها فقال . لا يمكنني ممالاءتك على هذا الامر فان الخدعة في مثل هذا الموقف اجدى لنا من سواها معه على شريطة ان لا يكون قد رأى وجهي ... ولا يمكن وضع الامر الذي تقصد اليه موضع الاجراء لا حين اناديك قائلا . لقد قضي الامر فلم يجبه محمد بشيء بل وضع يده على قبضة سيفه والتفت الى مدخل الشارع المؤدي الى الاستحكامات . ولحسن حظهم كان قد حدث امر لم يكن بالحسبان جعل القوم يحتشدون في الزقاق فان بعض الجدران المبنية لصيانة الزقاق من غوائل قنابل الاعداء تداعت وسدت الطريق . وجاء رجال الجزار وشرعوا يرفعون الحجارة ليعيدوا المرور في الزقاق الى حالته الاولى . وبينما هم على تلك الحال واذا برايموند يقول لمحمد بصوت منخفض . انظر الى هذا المملوك القادم الينا ...

— انا اعرفه فهذا عبدالله احد نواب مراد . والافضل لنا ان لا تقع عينه علينا

وسارا امام المنازل لكن ثوب محمد لم يحجبه عن نظر عبدالله . فقال له هذا الاخير . يامحمد تعال وساعدني لمعاقبة هؤلاء اللئام

— لا يمكنني تلبية امرك الان فانا سائر الى السور للتفتيش عن صوانة بندقيتي التي فقدتها هذا المساء لما كنت ارمي المسيحيين

— ولكنك لا تقدر ان تجدها فالظلام دامس

— اعلم اين اضعتها

— ومن هو هذا البربري الذي يصحبك

— هذا ابني عمر

فقال له عبدالله مدهوشا لمعرفته ما كان من مقتل عمر . هذا الامر مستحيل

فقال الاعرابي وهو يتسلق السور بسرعة اعود اليك بعد هنيهة من الزمان

فداخلت عبدالله ريبة في كلام محمد وتصرفه وجعل يناجي نفسه قائلا . هذا الشاب عمر يظهر مرة اخرى بعد قتله وغرقه . وهو يسير على السور بسرعة الارنب في مكان خال من الناس لا شغل له فيه ... وقد بان لي ان اطواره غريبة اليوم ... فرصاصته كانت تخطىء الفرنساويين الذين رماهم على مسافة قريبة ... وما عدا ذلك ففي الامر خدعة من الجزار الهابة في صدره ريح الحسد فها انذا اذهب الى مراد لاوقفه على حقيقة الحال

ومضى عبدالله مهرولا الى القصر المنتشر فوقه لواء السكون . وكان رايموند وهو يسير وراء الاعرابي يفحص الاسوار بسرعة وتدقيق وقد شعر بحرج موقفهما في ذلك المكان . وشعر رايموند ببهجة عظيمة تفيض من فؤاده عند

روءيته بجلاء ووضوح في ضوء القمر مجموع تحصينات واستحكامات عكاء فادرك حالا الخطأ الذي كانوا يرتكبونه في محاصرة المدينة · ولما وصل الى البرج الحديدي المبنية قاعدته على الصخر بناء متينا علم سبب عجز قنابل المدافع ان تثلمه في بضع ساعات · فقال له محمد متوسلا سربنا الا تنظر اناسا يمشون على السور حاملين مصابيح ومشاعل ··· لقد كشف امرنا وعمدوا الى اللحاق بنا

— فلنذهب ولكن الا يمكننا اختصار الطريق بوثوبنا من هنا الى الخندق اسفل السور

— ذلك امر مستحيل · انظر الى عمق الخندق ···

والحق يقال ان علو ذلك السور كان ثلاثين قدما ولم يكن ممكنا الوثوب الى الخندق دون ان يستهدفا لرصاص بنادق الاعداء ودون ان تدق عنقاهما · وللحال قال رايموند · هيابنا الى المرفأ · وقبل مزايلته لذلك الموضع القى نظره على استحكامات فيليبو الجاحد موءملا انه في الغد سيصيرها اثرا بعد عين

ونزلا في المدينة وكان وراءهما عند طرف الطريق جمهور غفير من الناس يعدو خلفهما فابصره الحراس الاتراك قادما وقد بلغ منهم الاضطراب والقلق ·

فقال رايموند · ان هوءلاء البله لا يعلمون ان ذلك الجمهور يطارد شخصين وقعت عليهما الظنة وقد كان الاولى بهم توقيفهما ريثما تنجلي لهم الحقيقة

فراقه صفاء ذهنه وشعر بانه جعل الاعرابي يعتقد بافضليته · وكان

انتقال محمد من البادية الى المدينة قدافقده خدعته فلم يعد يفتكر الا بالهرب ولولا رباطة جأش بارسفال وتمكنه من تجنب العسس لكان نشب هو ومحمد في اوهاق الاسر . فقال محمد بقلق يزيد شيئا فشيئا . انهم يقتفون اثرنا

— اصبت يامحمد ولكن كل شيء يتعلق على جوابك على هذا السؤال وهو . من يقتفي اثرنا ... فاذا كان المقتفون لاثرنا عبدالله والانكيزي فلا سبيل لخوفنا ...

— ليس من الحكمة ان تنتظرها هنا لنعلم من يقتفي اثرنا

— ولماذا ... فنحن على جانبي الطريق من جهة ثلاثة شوارع وجميعها تفضي بنا الى المرفأ وسوف نرى ذوينا على ضوء النار الموقدة على البرج الحديدي يمرون امامنا ويمكننا ان نعرف قائدهم

ولبث محمد وهو خجل من اظهاره الخوف ينتظر وعيناه شاخصتان الى الفصيلة التي كانت تتجسس في ناحية السور . ولما صار الجنود الى المكان المنتشر فيه ضوء تلك النار عرفا الضابط الذي كان يقودهم وللحال صاحا بصوت يشف عن قلق شديد . مراد

اقتفاء الاثر

١١

ولما علم مراد من عبدالله ما كان قد حدث مما يثير الظنون من ربضتها قطب حاجبيه وتجلد لكظم غيظه قائلا . ان محمدا الاحمق هذا اصبح شديد الخطر علينا ولم يعد لنا بد من التملص منه بغير تردد ... ويحضرني امور

كثيرة اجراها وهي مما يدعو الى ايقاظ الشكوك . فان مجيئه الفجائي الى عكاء واصراره الدائم على ذكر اسم عمر امامي واخطاءه عمداً الفرنساويين الذين يطلق عليهم النار

— لقد وضح الامر فمن الممكن ان يكون سليله عمر قد نجا باعجوبة وعاد ...

— ان هذا الامر ضرب من المحال فقد رميته برصاصة اصابت جبينه وقد غرق امام عيني ...

— وهل وجد الاعرابي جثته

— تخامرني ريبة في هذا الامر ... ولا يبعد ان يكون احد النوتيين قد تكلم عما جرى ... واظنه ذلك الرجل الذي نجا سباحة ولم اتمكن من اصابته ... وهو يحسن السباحة ويدور في خلدي انه وصل الى الشاطئ واخبر هذا الاعرابي بكل ما كان ... وعندي ان عمر الموهوم ليس سوى صفد ولسوف نرى فتتجلى لنا الحقيقة ولا تمضي ساعة من الزمان حتى يقع ذانك الرجلان في ايدينا

واصدر اوامره الى المراكز المتعددة وسد كل الطرق المؤدية الى المرفأ دون ان يفكر في وجوب تفقد الزوارق ثم انه قال لعبدالله الذي جمع اليه المماليك . فلنصعد الان الى البرج الحديدي

— الا يجول في خاطرك انهما رجلان من رجال الباشا فوض اليهما سرا تجسس اعمالنا

— انا موقن ان احمد باشا الملقب حقا بالجزار يستطيع ان يحالف سرا بونابرت الظافر ويفاوض المحاصرين . وسينجلي لنا هذا الامر عند مشاهدتنا

هيئته حين تنبئه بنحر جاسوسيه ... وللحال اسرعوا بمطاردة ذينك الرجلين وكانوا قد وصلوا الى السور ...

وكان بارسفال وهو رابط الجأش يفكر في خطة ينتهجها فقال لمحمد . سر انت في الشارع الى جهة اليمين وانا سير في الشارع الى جهة اليسار ومن منا يصل الى الزورق قبل الاخر يقيم على حبل انتظاره الى ان يصل رجال مراد الى الرصيف . فقال له الاعرابي وماذا نفعل بعد ذلك

— انـك تسرع الى مصب نهر قردانه في الناحية الضاربة فيها طلائع الجنود الفرنساويـة وتعرفهم بشخصك بتعريفهم باسمك ... فيأخذونك الى محل اركان الحرب حيث تجد القائد الاكبر فقل له وحده . ان بارسفال اسير وقد اوصاني بان احمل اليكم هذه الكلمات وهي ان تهجروا محاصرة البرج الحديدي وتدكوا ناحية السور الشمالية وتهجموا بدون تأخر

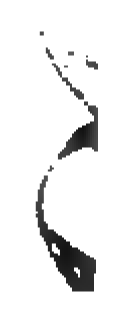
— فهمت كل ما تبتغيه

— هلم بنا نسرع الى المرفأ

وسار كل منهما الى الناحية التي اتفقا عليها قاصدين الى البحر . ولم يخطر ايموند خمسين خطوة حتى وقف عند رؤيته امامه عند اسفل الشارع صفا مـن الحراب والبنادق تسد الطريق فانتكص على اعقابه خلسة وعاد الى مدخل الشارع والتقى بمحمد فقال له هذا . وهل الطريق مسدودة

— بقي لدينا الطريق الثالث وهو الاطول فان نحن الفيناه مسدوداوجب علينا المرور به عنوة ... تعال واتبعني

وعاد الى استئناف المسير وهو واجم وكانت الطريق كثيرة التعاريج تحيط بها منازل عاليـة وابتدأ القمر يحتجب بالغيوم ثم يطلع مرة بعد مرة

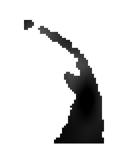


ففكر رايموند في نفسه قائلا • ان هذا النسيم اللطيف يساعد على الوصول الى عرض البحر

ولما صارا الى اطراف الشارع ابصرا المرفأ واوشكا ان ينجوا لان الطريق كان مفتوحا في وجهها ولم يبق امامهما سوى دورة واحدة وانحدار قصير المسافة لينتهيا الى الميناء • ولما وصلا اليها استقبلا بعشرين عيارا ناريا واصوات عالية فتحدمت نار الحنق في فؤاد الضابط الفرنساوي وانتكص على اعقابه راجعا مع محمد وقال • انهم لا يحسنون الرماية فقد اطلقوا بنادقهم في الفضاء • وفي الوقت عينه حملت اليهما الريح صياح رجال مراد الذين كانوا يعدون وراءهما في الشوارع الثلاثة الآنفة الذكر • وكانت المنافذ مسدودة فبحث الضابط والاعرابي في الجدران لعلهما يعثران فيها على مخبأ يتواريان فيه او زاوية يسندان اليها ظهريهما ليقاتلا الاعداء ويموتا في الجهاد • فقال بارسفال لا اشتهي شيئا الا الحصول على وقت كاف لقتل مراد قبل تصرم حبال حياتي

— اذا انت اخطأته بذلت المجهود للاثار منه لنا ولعمر

ثم انهما امسكا بيديهما غدارتيهما ولبثا ينتظران وهما مدهوشان من السكون الذي ساد عند طرفي الشارع ولم يلبثا ان ادركا سبب ذلك الصمت عند سماعهما مراد يصيح قائلا • تقدما ايها النذلان • واجابه مملوك • ان اول شخص يغرر بنفسه في هذا المأزق يلقى منيته • فقال مملوك اخر • يجب ان نفاجئهما من وراءهما لان الاعرابي اللئيم يجيد الرماية • فامرهم مراد قائلا • سيروا ورائي وكان كل من بارسفال ومحمد ينظر الى الاخر عند رؤيتهما عدوهما اتيا اليهما فالقيا في ذلك الامر سلوانا وتعزية على ما كان



يتوقعهما من العطب الوبيل ...

وسمعا الى الجهة اليمنى وقع اقدام رجال مراد وهم يسيرون وراء زعيمهم ولم يكن ادنى صوت يهددهما من الجهة اليسرى الى ناحية المرفأ لان رماة الاتراك كانوا كامنين لهما يترصدون بروزهما مرة اخرى . فسأل بارسفال محمداً وقد بلغ منه التبرم من طول الانتظار . اين نحن الان

— لا ارى شيئاً لان الظلام حالك جداً ...

وبعد هنيهة من الزمان طلع القمر من وراء الغمام وانار فوق رأسيهما شجرة تين كبيرة نابتة من جدار يبلغ ارتفاعه نحو عشر اقدام . فقال بارسفال . نحن على مقربة من احدى الحدائق

— افي قصر الجزار وحده

— وما ادراك ما يصيبنا ...

— فلنتسلق الجدار

— لنسقط في يد الجزار

قال بارسفال هذا الكلام وشرع يتسنم الجدار مستعينا بما كان ناتئاً فيه فقال له محمد اني وايم الحق اعرف بعض مخابيء في القصر فان نحن تمكنا من الوصول اليها لم تفتنا فرصة التعرف ...

وصعد محمد وراء بارسفال الذي بلغ شجرة التين وتعلق باغصانها ليصل الى اعلى الجدار ولبثا واقفين لا يبديان حراكا . فعرف محمد الحديقة الممتدة تحتها وسار بغية اكتشاف مخبأ يكونان فيه بمأمن من حلول المصائب والملمات الملمات غير محتفلين بالجلبة التي كانت تطبق الفضاء وغير مكترثين الانوار التي كانوا يسيرون بها في كل ناحية واقلق اطلاق النار في المرفأ جميع



الخواطر واثار جميع الافكار وصير موقف محمد ورايموند حرجا . فهمس رايموند في اذن الاعرابي قائلا له . هلم بنا ننحدر

— لم يحن الوقت للانحدار ..

— فهمت ما تنويه .

وسمعا اصواتا تحتهما فعرفا مرادا ورجاله فكانوا يسيرون في الظلام الدامس فاراد محمد ان يطلق النار على مراد من بين اغصان التينة ويورده مورد الهلكة الا ان رايموند الذي لم يكن يفكر الا في الرجوع الى المعسكر الفرنساوي تصدى له وامسك يده ومر مراد في الشارع ووراءه اثنا عشر جنديا وجميعهم متحمسون كل التحمس للقبض على ذينك الاعرابيين . فقال بارسفال وهو يسير في حديقة الباشا . ان رصاص الكمين سيصيبهم ولا محالة ومن الممكن ان يهلك مراد معهم . فقال له محمد . تعال من هنا فالمعابر الاخرى مسدودة وهلم بنا نختبئ بين اشجار الرمان الكثيفة الاغصان الملتفة الاوراق وبعد ذلك نستطيع اجتياز فناء القصر للوصول الى الاسطبلات حيث نلقى انفاقا كثيرة تؤدي الى المرفأ

فاختبأا في الظلام وهما مصغيان الى الاصوات الاتية من ناحية الشارع وبعد قليل من الحين سمعت اصوات البنادق وسمع صوت مراد يملأ الفضاء فقال الاعرابي اخطأوه هذه المرة ايضا فقال رايموند بقلق . انهم عائدون وبايديهم المشاعل ولا يبعد انهم يهتدون الى اثار تسلقنا جدار هذه الحديقة

والحق يقال ان مرادا كان يفتش في منازل الشوارع الثلاثة والريب يتجاذبه من كل جهة . فكانوا ينظرون المشاعل تذهب وتجيء على السطوح والشرفات . فاستفاد الهاربان من ذلك التفتيش وعمدا الى محو اثارهما

عن الجدار بيد ان ذلك الامر لم يجدهما نفعا لان خدام الجزار الذين انفذوا لاستطلاع طلع الامر اجتازوا الحديقة دون ان يبصرا الاعرابي ورفيقه وفتحوا الباب المؤدي الى الشارع . وللحال وقف مراد على العتبة وانتهر رجال الباشا قائلا لهم . اذهبوا الى سيدكم وقولوا له . انا لا نرضى ان يخدعنا الى هذه الدرجة ... فان عمله هذا سيرقى الى مسامع المولى الاعظم في الاستانة وسيعلم ان الجزار يواري الجواسيس عن انظارنا . لقد ادخلتم الى هذا المكان رجلين فسلمونا اياهما حالا والا سيرت الى ابراهيم بك رسولا لا يسر الجزار بتسييره اليه . فتأثر رجال الجزار من كلام المملوك وعادوا الى سيدهم واخبروه بكل ما قاله لهم مراد فامر باحضار مراد اليه واستقبله بحنق مثل من شأنه ان يتملقه ويخضد شوكته في وقت واحد . فسأله بلطف ورفق . وبأي شيء تنحي علينا باللائمة . فصاح به المملوك قائلا مهدت سبيل الفرار في وجه هذين الرجلين اللذين لم يتمكنا من الهرب الابطرق قصرك . فابدى الجزار دهشا حقيقيا لم يبق في فؤاد مراد ادنى ريبة . فقص عليه هذا كل ما كان من حوادث تلك الليلة . فقال له الباشا . خذ حراسي وابحث في كل جوانب القصر وانا اهبك الرجلين المذكورين فافعل بهما ما يروقك فعله ... واهب من يكتشف مقرهما مائة ذهب

فلم يضع مراد الوقت سدى واوعز الى بعض العسس ان يبحثوا عن اثار الفارين فتوفقوا في الاهتداء الى اثار صعودهما على الجدار ولكن تلك الاثار اختفت عن الابصار عند اسفل الجدار لاختلاطها باثار اقدام اخرى . فصاح مراد قائلا . لا بأس من ذلك فانا سنقبض عليهما لا محالة ... واريد امساكهما حيين افهمتم ذلك .. فهما يخصاني

ولم يستطع رايموند ومحمد سماع هذه الكلمات لانهما اغتنما الفرصة من تلك الجلبة وتقدما في فناء القصر سائرين الى الاسطبلات فوجدا الانفاق واصبحا بمأمن من الخطر ولكنهما ما عتما ان ابصرا قضبانا حديدية تسد تلك الانفاق . وكان كسر تلك القضبان يقتضي عمل ليلة كاملة فقال رايموند لمحمد . الا يوجد مخرج اخر

— القصر في حركة عظيمة ... ولا اعرف سوى ملجأ واحد تستطيع الاختباء فيه واما انا فاني اذعن للقدر وقد تعبت من مكافحة الدهر

— اصمت وافتكر ببغضك وانتقامك ... واين هو هذا الملجأ

— تعال لاريكه

وسارا في دهليز ضيق حتى انتهيا الى باب حديدي ففتحه محمد بمفتاح صغير واغلقه وراءهما فصارا الى حديقة صغيرة ينبعث منها اريج الورود . وكان الماء الزلال يصب في فسقية من المرمر الاسود . وكان منظر تلك الحديقة في ضوء القمر يحرك القريحة الشعرية في رأس رايموند ويخمد في جسمه لهيب الحمى . ويسكن فيه متحركات العواطف المتأثرة . فسأل محمدا هامسا في اذنه كأنه يخاف ان يوقظ بعض الارواح الراقدة من ذلك الفردوس السري . اين نحن الان . فاراه الاعرابي في الجهة المناوحة مرجة خضراء متناهية في الجمال وبيتا من الزجاج الملون يضيء فيه مصباح من البلور الصافي . فصاح رايموند بلهفة رجل وقف نفسه على حب الشبيبة والجمال . اهنا وردة .

لفظ بارسفال اسم حبيبته واطبق عينيه وهو يتمايل ولو لم يستند الى كتف محمد لكان هوى الى الارض فقال له الاعرابي . اصغ الي ياراتيموند

واعلم ان قصر الجزار تحيط به الخفراء من كل جهة . ولسوف يبحثون منقبين في كل جوانبه ولكن هذا الامر يقتضي حينا من الزمان ولا يوجد فيه ملجأ يحترم مراد ابتذاله الا هذا المكان

فقال له رايموند وهو في غاية التأثر . وكيف تريد ان ...

فهز الاعرابي رأسه وقال . دعني اكمل حديثي ولا تخف علي مكتومات ضميرك . فاذا كانت الفتاة المصرية تحبك انقذتك واذا كانت تكرهك قضي عليك بالهلاك معي غير اسف على هذه الدنيا

— ولكن واجباتي الجندية

— لا تغير شيئا مما هو مكتوب لجيوشكم ... وفضلا عن ذلك فستهرب في الليلة القادمة بطريقة اسهل من سواها

— وانت ماذا تفعل

— اعالج تتميم المهمة التي فوضتها الي

— وهل تؤمل النجاة

— ارجح هذا الامر ... فانا افتكر بجب مهجورة قريبة من هذا المكان ... وفوهتها مطمورة ببقايا بعض المدافع المحطمة .. فان من كان مثلي ضئيل الجسم يمكنه الاختباء فيها .. وسمعت اصوات الاتراك اتية للتفتيش في جهتهم . فصاح رايموند بمحمد قائلا له . اسرع ... وافتكر بنجاتك ..

— لا اباشر شيئا لنجاتي قبل ان اعلم ... واذا لم تشاء الفتاة تخبئتك اثرت الموت معك ... فانا احبك كابني

فتأثر رايموند من كلام الاعرابي وضغط على يده بكلتا يديه . فقال له محمد . البث بجانب هذا الباب ولا تجتز الحديقة الا باشارة مني



ثم ان الاعرابي سار بجانب الجدران البيضاء ووقف امام نافذة وردة فقرع النافذة قرعا خفيفا في بدء الامر ولما لم يجبه احد قرعها قرعا عنيفا وهو يقول في نفسه . لا بد من ان تكون قد استيقظت على صوت اطلاق البنادق فما بالها لا تبدي حراكا . ولكن لم يمض عليها سوى بضع ثوان حتى فتحت النافذة الزجاجية وبدا منها شبح شفاف يحاكي حور الجنان وسمع صوت منخفض يقول من الطارق على نافذتي

— انا محمد ... افتحي حالا يامولاتي ...

ففتحت وردة نافذتها وقالت له ماذا تريد فانا في غاية الخوف

— لا تخافي شيئا ياوردة ولكن الا تسمعين جلبة وضوضاء في المدينة وفي القصر

— بلى فبعيشك قل لي ما هي هذه الاصوات المخيفة فهل حدثت مذبحة ...

— ان ضابطا افرنسيا دخل المدينة فدروا به وتعقبوه ولا يلبثون ان يقبضوا عليه ويقتلوه . فقالت له بمرارة وقد اضطربت كل افكارها . اتقول ان ضابطا افرنسيا قد قتل ....

— اذا لم تمدي يدك لمساعدته قتلوه ولا محالة

— وما هو شأني في امره

— ان غرفتك هي المكان الوحيد الذي لا يجسر مراد على التفتيش فيه

— يالله... وهل مراد .... ويحا له من تعيس ... ولكنني لا يمكنني ان ادخل نصرانيا الى غرفتي . أانت مجنون .....

— اترفضين ذلك ولو كنت مديونة بحياتك لهذا الشخص ....

— آه ... فهل هو ...

ثم انها اطرقت برأسها الى الارض وقالت لا . لا . لا يمكنني ذلك ولاسيما لانه هو ...

— بناء عليه فهو من المقضي عليهم بالهلاك

— اين هو

— على مقربة منا وهو ينتظر اشارة مني ... فها انذا ذاهب اليه لاوعز اليه بالانصراف .

— مهلا يامحمد ... انك تطعن قلبي برمح العذاب ... لا استطيع ... لا اريد ... قالت هذا وجعلت تنتحب . فقال الاعرابي . لو كان منصور هنا لكان ينقذه

فاقفلت وردة نافذتها دون ان تجيبه بشيء فقال محمد في نفسه . ستفتحها عن قريب . ثم انه اشار الى رايموند بالدنو منه وقال له . اطرق هذا الباب فتفتح لك . فكاد رايموند يجن من شدة الفرح . وللحال دنا من الباب وطرقه ... ولم يتمكن من التفوه بكلمة واحدة تدل على شكره للاعرابي قبل ان ابتعد عنه هذا ولكنه قال هذه الكلمات المتقطعة . اعلم ... في المعسكر ... بونابرت ... لينكبوا عن البرج ... السور الداخلي والهجوم حالا ... هذا كل شيء ... ومن الممكن ان اموت هنا

وتوارى محمد عن الانظار وسمع رايموند اسفال الباب الصغير الحديدي يفتح ويقفل ولم يكن ادنى خطر منجل يتهدده ومع ذلك فان كل اوصاله كانت ترتعد . فاعاد الطرق بجبانة ونادى بصوت منخفض . ياوردة . فسمع من وراء الباب صوت تنهد يدل على كفاح عنيف ففاض فرح شديد

من قلب رايموند ونسي كل شيء ماعدا حبه لوردة ولم يكن يفتكر الا بعينيها النجلاوين وجمالها الفتان

وكانت الجلبة تزداد فوق السوروموراد يزيد تلك الضوضاء اشتدادا بما كان يقذفه من السباب واللعنات . فوصل الى مقر الفتاة والحنق ملء قلبه وقد كاد يجن من احباط مسعاه . وصاح بصوت عظيم سمعه بارسفال ووردة . قفوا هنا يارجالي فانا اريد دخول هذا المكان . ياسعيد اعطني المفتاح

وكانت مخاوف الاعرابي كادت تتحقق فانه لم يبق بدون تفتيش الا حديقة الفتاة المصرية . وكان مراد موقنا باكتشاف الاعرابي ورفيقه السري فيها . فقال لسعيد . ياسعيد هل كان مع محمد مفتاح لهذه الحديقة

— نعم ياسيدي

— سنقبض عليه ولا محالة

وسمع صريف المفتاح في الباب ... وكان رايموند واقفا امام باب وردة المقفل فقال لها بصوت المودع . ياوردة ... اني احبك وها انذا اموت

فعلى الفور فتح الباب وصاح مراد بصوت الحنق والظفر ودخل الحديقة التي كان ضوء القمر يملاءها وبعد التفتيش لم يتمكن من العثور على احد . ولم يعد مصباح الفتاة المصرية يضيء من وراء نافذتها ورأى باب الحريم موصدا باحكام فانه فتح لرايموند فدخله واغلقه بلطف

النفق

١٢

وبينما صفد نائم في الزورق وهو يغط لاستغراقه في الكرى استيقظ بغتة عند سماعه اصوات العيارات النارية فادرك للحال ان رفيقيه كانا في خطر عظيم وتهيا لمد ساعد المساعدة اليهما دون ان يغادر الزورق الذي كان يجب عليهم الاجتماع فيه قائلا . لا بد لهما من المجيء الى هذا المكان ان هما تمكنا من النجاة من جميع الورطات

وكانت الجماهير تحتشد على المرفأ فزاد اضطراب صفد عند رؤيته تلك الحال فانضم الى البحارة والحمالين على المرفأ فالفاهم يتساءلون عن سبب الحركة والاضطراب في المدينة .

وبعد قليل من الحين جرى اسم عمر ومحمد على الالسنة . فقال السوري في نفسه . ان امر الاعرابي قد انكشف ولكنّ ما معنى اسم عمر فهل قام من بين الاموات

وظن ان تنكر رايموند جعل الناس يجهلون حقيقة هويته فهو ولا مراء الشخص الذي كانوا يزعمون انه ابن محمد المتوفي

ومر مراد بجانبه ومعه رجاله فتوارى وراء اشخاص مجتمعين في تلك الناحية وسمع المملوك يقول لنوبه . ان رفيق محمد لا يدعى عمر ولكن صفد

فامتقع وجه صفد وكاد فؤاده ينزو من صدره من شدة الخوف وحينئذ فكر في ان يلقي بنفسه الى البحر ويسبح ناحيا سفينة انكليزية ان هو لم

يتمكن من الوصول الى مصب نهر قردانه . وقال . غدا سيعرفني مراد ولذلك لا بد لي من الهرب قبل انقضاء هذا الليل لانني لا استطيع ان اجد في هذه المدينة المجهولة ملجأ امينا . وقال مملوك كان مارا بجانبه وذاهبا لاحضار نجدة . انهما نظرا في قصر الجزار . فقال احد السوريين . ذهبا من تلقاء نفسهما ليقدما ذاتهما ضحية للجزار

فكاد قلب صفد ينخلع عند سماعه ذلك الكلام وقال في نفسه . اذا هما لم يعودا الى هذا المكان بعد ساعتين حللت مرساة زورقي وعدت مسرعا الى العسكر الفرنساوي لاخبر بكل ماجرى

وكان صفد متوهما ان بونابرت سينسف الاسوار ويهجم هجوما هائلا لانقاذ ذينك الرجلين لاعتقاده ان مقدرة السلطان الكبير لا تحد ولا تحصر . وكان صفد قد عاد الى زورقه لاعتقاده انه يكون له امن من سواه وتوارى فيه مختبئا بالاردية ومقاعد المجذفين . فجذبه التيار الى ناحية يقابلها منفذ لناحية تجري منها اقذار المدينة الى البحر . ففكر صفد ان يلجأ الى تلك القناة مؤملا انه لا يأتي احد للتفتيش عنه في ذلك المكان ومن هناك اصغى ليتبين ما كان يجري في ذلك الليل البهيم ...

ولما افترق محمد عن رايموند القى عمامته على رأسه وخلع الثياب التي كان الفرسان يلبسونها وسار في فناء القصر مجتازا كوخا حقيرا مهجورا والفى طريقا ضيقا بين جدران الحدائق والاشجار النابتة فيها . ففكر في نفسه قليلا من الزمان قائلا . ان انا بقيت هنا ... فلا يستطيع احد ان يهتدي الى هذا المخبأ

ولكنه تذكر ان سارقا وجد في ذلك المكان في الاسبوع السابق وقد

إثخن جراحا وسمر على خشبة فمات عليها . ومن الممكن ان يخطر على بالهم اعادة التفتيش في ذلك المكان . ولكن يجب علي ان اكتشف البلاطة والبئر اللتين ابصرتهما تحت انقاض استحكامات الحرب

ووجد مشقة عظمى للمسير بين تلك الاماكن المحفوفة بالمخاطر وتلك الفخاخ المنصوبة وخشي من ان يكون خياله على الجدار في ضوء القمر سببا لكشف مقره وقد اطلقت عيارات نارية الى الناحية التي كان فيها دون ان تصيبه . وللحال تألفت عصابة وجعلت تقتص اثره ولم يمض مدة طويلة حتى احتشد جميع الذين كانوا بين شجيرات الورد وتسلق نافذة واختبأ في احد اهراء الحنطة . وحدث انه سقط في معلف فرس ارتاعت منه وجعلت تهصل صهيلا جاء على اثره مروضو الخيل ليتبينوا سبب ذلك الصهيل . ولكن محمدا اسرع قبل دخولهم الى الاختباء بين اكياس الشعير وانحدر الى الشارع وسقط عليه كثير من الجيص والاجر المحطم .. فقال في نفسه وهو واهي القوى وقد أمل ان مرادا يستهدف لاخر رصاصة يطلقها من بندقيته . ساموت في هذا المكان

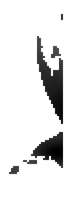
وكان يسمع مضطهديه يتنادون ولم يعد المملوك يصدر اوامره بل ترك التنقيب لرجاله وكان محمد قد قنط من الانثار لنفسه من مراد فتجلد واراد النهوض للفرار ولكنه عاد فهوى الى الحضيض واهي القوى وجعل يفحص الارض فعثر على حلقة من الحديد في حجر فانتعشت اماله حين تحقق ان تلك الحلقة كانت في الحجر الذي يسد فوهة البئر التي كان قد شاهدها في النهار . فعالج رفع الحجر ولكنه القى صعوبة شديدة وسمع صوتا يقول . تعالوا الى هنا فانا سامع حركة بين الانقاض

فاكسب القنوط ذلك الاعرابي الشيخ قوة مضاعفة حتى انه تمكن من اقتلاع ذلك الحجر فبانت تحته فوهة بئر ضيقة تنبعث منها روائح منتنة فارتد الى الوراء منقبض الصدر وسمع اصوات السفاحين تملاء الفضاء على مقربة منه ولكنه لم ير له بدا من النزول الى تلك البئر وارجع الحجر الى الفوهة فوق رأسه بعد ان قلبه ظهرا لبطن وجعل الحلقة الى الداخل مستعينا بها على التعلق واسند رجليه الى جدران البئر ولبث حينا من الزمان وهو يشعر بالم شديد وسمع وقع اقدام رجال مراد والجزار فوق رأسه على الحجر المقلوب ولكنهم لم ينظروا في الظلام ذلك الحجر مقلوبا وفضلا عن ذلك فانه كان صغيرا بنوع ان امر قلبه لم يكن ليخطر على بالهم البتة ولاسيما لان الحلقة الحديدية لم تكن تنظر فيه · فمروا وهم يصخبون ويشتمون ويطلقون النار ليوهموا مواليهم انهم سائرون على اثر الفارين او ليقذفوا الذعر على فؤاد الهاربين ويهدموا صرح عزيمتهما

وكان محمد يستنشق في ملجأه هواء فاسدا يكاد يخنقه · وبينا هو يهم برفع الحجر فوق رأسه سمع وقع اقدام خفيفة فعلم ان قد كان هناك جنودا اشد تحذرا من سواهم يجولون في الليل وهم صامتون ليفاجئوه ويقبضوا عليه · فصمم على الانتظار في مكانه بغير حراك ما دام استنشاق ذلك الهواء الفاسد مستطاعا · ولما مس جدار البئر برجله علم انها تتسع كلما سار فيها الى اسفل ·· فتقوس مستندا الى ركبتيه ومعصميه وترك الحلقة الحديدية ونزل نحو ست اقدام وهو يقول في نفسه منتفضا من الفرح · ان الهواء هنا انقى منه ويمكن استنشاقه فان انا نزلت ···

وكان كلما ابتعد عن فوهة البئر يجد راحة في استنشاقه الهواء ويجد

البئر تتسع شيئا فشيئا ويقل فساد الهواء وتخف تلك الرائحة الكريهة فتوهم ان هنالك مجرى هوائيا منعشا يجدد هواء تلك الانفاق فصمم على الاستمرار على الانحدار غير مبال باتساع البئر الذي كان يصير النزول صعبا ومحفوفا بالخطر في ذلك الظلام الحالك . وحدث انه وضع قدمه على شيء ناتىء في داخل البئر فللحال خشع تحت قدمه وهوى محمد الى اسفل في فضاء البئر فعقب سقوطه قرقعة وصوت ورشاش ماء لان محمدا سقط من علو عشرين قدما الى مستنقع تحت الارض ولكنه لم يتأثر من ذلك السقوط لان عمق المياه وما كان يخالطها من الوحول خففا تأثير سقوطه فجعل محمد يختبط في الماء ويسبح على مهله وهو خائف من ان يكون احد قد سمع القرقعة التي تليت سقوطه ولكن لم يسمع ادنى صوت على وجه الارض فوق رأسه فتنفس الصعداء وجعل يعالج التملص من ذلك المأزق الذي توغل فيه . . . فدار حول ذلك المستنقع ولم يكن الماء يبلغ الى ما فوق حقوبه ولبث محمد يتجسس ذلك الصخر الكبير فعلم ان هنالك اربعة اقنية تصب حاملة اقذار المدينة وسائرة بها الى مكان اخر يبعد عن الموضع الذي كان هو فيه ومنه كان هواء البحر يأتي اليه . فسار محمد لساعته في القناة التي تجتمع فيها الاقنية الاربع وبعد مشقة كبرى تمكن من اجتياز نحو مائة متر فالفى القناة تميل الى جهة اخرى بزاوية مستقيمة ولم يكن هناك سوى ممر ضيق يستطيع الرجل بعناء عظيم المرور به . ولما عبره محمد تحقق انه نجا . وكان القمر يرسل اشعته المضطربة على البحر والنسيم العليل يملاء رئتيه فينعش جسمه . . . وجعل يسبح ميمما المنفذ حيث كان مركب ملقيا مراسيه في الماء وكانت الاصوات قد انقطعت على المرفأ . فامل محمد انهم عدلوا عن



مطاردته لكنه لم يسترسل الى ذلك الفكر بل بقي متحـذرا وكاد يمس المركب المذكور واذا برأس برز من زورق وجعـل يصغى الى الحركة الاتية من جهـة المنفـذ الانف الذكر فللحال عرفه محمد ونادى قائـلا • ياصفد • فاجابه صفد دون ان يبدي ادنى دهش • كنت انتظرك ولكن اين اليوزباشي

ـ لقد نجا ايضا ••• وهو يبتغي منـا ان نذهب الى المعسكر وننتظره فيه ••• فهل يمكننا الذهاب

ـ بعد مدة قصيرة يتوارى القمر تحت الغيوم فحينئذ نستطيع الخروج من المرفأ دون ان يدري بنا احد •

ـ الافضل لنا ان ننتظر

ـ وماذا جرى لمراد

فابدى محمد حركة مبهمة وغاص في لجة من الافكار بعيدة القرار ••

وكان مراد يحرق الارم وهو صـامت لا ينبس ببنت لسان وقـد اعتوره ذعر قليل من جراء ما حدث تلك الليلة فان الفارين قد اختفيا كانهما شبحان وكان شديد الرغبة للوقوف على حقيقة اثارهما ليتمكن من تدارك هول يقض المضجع ويقلق الخاطر • ولمـا تحقق ان حديقة وردة كانت خالية من الناس جرى في وهمـه وانتجت لـه فكرته ان يحفي في التنقيب في حجرة الفتاة ولكنـه علم ان تلك المعاملـة الخارجة عن حد الاعتدال تنكر عليه وردة ما دامت حياتها معقودة باوتار البقاء ولذلك اضطر الى التسبب باسباب الحيلة والخداع • فدنا من نافذة وردة وناداها باسمها بكل لطف فاجابت قائلة من يناديني

فقال لها . انا مراد . ففتحت النافذة وبرزت مبرقعة تحت ضوء القمر الضئيل وقالت له بلهجة التعنيف . لماذا لم تعد تحترم رقاد النساء ... الا يكفي ان القوم يذبحون في الازقة وينهبون تحت جنح الدجى حتى يحملك اهواءوك التي لا يرويها الا الدم على حرماني من لذة النوم

فقال لها مراد معتذرا . عفوا يا وردة فقد اتيت لاسأل هل اصابك مكروه فان لصوصا فروا ... وظننتهم استعاذوا بحديقتك ... الم تسمعي ادنى حركة او صوت في الحديقة ...

— لم اسمع شيئا ... وفضلا عن ذلك فلو كنت قد سمعت شيئا لما تأخرت عن اطلاق النار على من يتجرأ على الاطلاع على حديقتي اتيا اليها بمقاصد سيئة فان منصورا ابقى عندي اسلحة

وكانت تفوه بهذه الكلمات وصوتها يرتجف من فرط الحنق ولو لم تكن هي تفرق بين توجيه هذا التهديد الى مراد او الى سواه فأثر به سكونها الدال على جرأتها وتعجب من ثبات جنانها المقرون بمحاسنها الفتانة وشعر بان ظنونه الاخيرة قد تبددت كما يتبدد الدخان من وجه الريح .

فقال لها بلطف . يجب علي يا وردة ان احذرك من محمد الاعرابي فانه خائن وجاسوس لاعدائنا

— اتقول ان الاعرابي خائن ... ولماذا عينته خادما لي

— كان نائلا ثقة منصور ... وظننت انني اسر قلبك ...

— شكرا لك على عنايتك بي ولكنني اوءكد لك ان ذلك الرجل الشيخ لم يكن لي ذا فائدة فان سعيدا يكفي وحده لحراستي

— ها انذا ارسله لينام على عتبة مخدعك وسأوصيه بان يتركك ترقدين

غدا النهار برمته لاحتياجك الى الراحة بعد الرعب ... اودعك ياوردة موءملا ان تكون احلامك لذيذة

فاحنت رأسها له دون ان تجيبه بكلمة ثم انها اغلقت نافذتها وتنفست الصعداء وغادر مراد ذلك المكان وهو يسأل نفسه قائلا . الى اين اذهب الان ياترى

ثم انه جمع اليه نفرا من الخدام من ذوي الدهاء والكتمان وسار بهم على الاثر الذي لقيه في حدائق القصر . ولبث كل الليل يطوف في الازقة والشوارع باحثا على نور المصابيح في كل زاوية من الجدران القديمة العهد وكان متحققا كل التحقق انه قطع في الحين الملائم على ذينك الرجلين خطا الرجوع الى المرفأ ولذلك لم يفتكر في الانحدار اليه . ولما اوشك الفجر ان يتبلج ادى به المطاف الى رصيف المرفأ فسأل كل البحارة وعد كل الزوارق غير مغفل اصغر طوف منها وجاء مأمور الميناء وقال له ينقص اصغر الزوارق . فسأله مراد قائلا . واين كان مربوطا . فذهب الى المكان الحلقة التي كان مشدودا اليها فنظر هنالك منفذ القناة وللحال عرف المكان الذي هربا منه وقال . قد هربا من هنا الموضع

وامر فريقا من البحارة بان يفحصوا القناة ويجدوا المنفذ الموءدي بها الى المدينة ففعلوا وقالوا له . في هذه القناة مصاعب جسيمة تدل على ان للذين مرا بها جرأة تفوق جرأة البشر

فقال مراد . لا تتعجبوا من هذا الامر كثيرا فالجرأة التي تذكرونها ليست سوى قوة الارادة بالرغبة في الحياة ... وانا اعد الاسيرين الاولين اللذين يقعان في ايدينا باطلاق سراحهما ومنحهما الحياة ان هما اكتشفا النفق

المؤدي الى قصر الجزار

ــ هذا الامر من رابع المستحيلات

ولما طلع الفجر نزل المملوك الى البحر سائرا الى اقرب سفينة انكليزية. وبناء على طلبه سأل الربان البحارة الذين كانوا قائمين على الحراسة في الليل عما شاهدوه فقال احدهم . اذكر اني عند غياب القمر سمعت حركة زورق فيه شبحان ... وارجح ان الليل كان قد تناصف في تلك الساعة فمر ذلك الزورق في مكان لا يصل اليه الصوت من عندنا

ــ كان يجب ان تخبر بوجوده

ــ لا نستطيع ان نخبر عن كل الزوارق التي تخرج ليلا للصيد تحت حمايتنا

فقال مراد . ساصدر اوامر شديدة ومن الان فصاعدا لا يخرج احد من الميناء بدون رخصة .

ــ وفضلا عن ذلك فان هذا الزورق هو نفس الزورق الذي رأيناه قبل خروجه بساعتين داخلا بثلاثة اشخاص

فعادت الى مراد كل مخاوفه وقال . وهل كان فيه ثلاثة اشخاص

ــ انا متحقق ذلك ورفاقي يؤيدون صحة مقالي

قال هذا وسمى رفاقه المذكورين فنادوهم وجاءوا فذكروا شهادته . فقال مراد . ان في المدينة شخصا يخوننا ... فلا بد لنا من اكتشاف مقره فيها ... وعاد مراد الى السور فسمع صوت السور يوقظ الفرنسويين وقد بدأت الشمس تخرج من خدرها ... وكان صفاء الفلك يمكن الناظر من وراء الهواء الشفاف من رؤية تلك المناظر بكل وضوح . فعاد المملوك الى

تبينها . وللحال هاجت فيه عواطف الحنق عند روءيته جماعة واقفة على الاكمة القريبة فصاح ساخطا . هذان هما

وكان قد عرف من بين اركان الحرب محمدا وصفد وهما يشيران بايديهما الى ناحية السور الداخلي والى البرج الحديدي . وحينئذ لم يعد عند مراد ادنى ريبة بفرارهما . ولكنه تذكر ما كان قد اكتشفه صباحا والتفت بغتة الى الخفراء ظانا انه من الممكن ان يكون بينهم شريك ذينك الرجلين ... فلم ينظر سوى اشخاص مسلمين دائرين وجوهم الى جهة مكة والى جهة مطلع الشمس وساجدين على الجدران بكل خشوع لان ساعة الصلاة كانت قد دنت ... وكان الموءذن ينادي من اعلى المأذنة داعيا الناس الى اقامة الصلاة

غرام وردة

١٣

وصار بارسفال بمأمن من الخطر فاقفل الباب الضيق وشعر بان قلبه يخفق حتى يكاد ينزو من صدره وبات اضعف من ولد بعد ما اصابه من تلك التجربة الشديدة . وان الخطر الذي نجا منه بعد عنه حتى انه لم يعد يتذكره ومع ذلك فلم يكن بينه وبين الموت سوى سماكة ذلك الباب الذي لا يمكنه مقاومة مراد وشراسته . وشعر في الظلمة بوضع يد صغيرة مرتجفة على يده فاطاع دون ان يفوه بكلمة واحدة وسار وراءها الى مخدع صغير فاجلسته على مقعد واسع ارخت ستائر سميكة عليه ثم توارت عنه بسرعة . فحملق

بارسفال بعينيه في الظلمة دون ان يستطيع ان يبصر شيئا وسمعت اذنه المصغية لادنى حركة صوت فتح النافذة ومحاورة بين الفتاة المصرية والمملوك • واصغى بارسفال الى ذلك الصوت وقد تضعضعت قواه وتبسم بحزن مرّ لان كنب وردة ملاء فؤاده حنقا وشكرا في وقت واحد وكان يقاسي عذابا ويسر سرورا عظيما بوجوده ذاته على كثب من تلك الفتاة التي كان يحبها محبة ما وراءها من مزيد••• وكانت تعرف كيف تقصي عنها مرادا وبعبارة اخرى كيف تطرده طردا••• واراد بارسفال ان يتمثل بحب وردة ويماثلها فيه عند مشاهدته ما شاهده فيها من المخاطرة بالنفس لانقاذه ثم ان النافذة اوصدت وسمع اقدام المملوك في الحديقة المنتشر فيها لواء السكينة واقفل الباب الحديدي • وسمع رايموند ايضًا صوت المفتاح الذي اداره سعيد مرتين في القفل وكان الاسير يأمل ان يقضي ساعات بل اياما في محل لا تناله فيه المكاره • ولم يعد يجري في باله البتة ذكر المعسكر الفرنساوي فان واجبات الجندي زالت من ذهنه كأنها لم تكن شيئا مذكورا وانحصرت حياته ضمن جدران الكرنك وفي طي حديقة وردة وحجرتها فقد كانت تملاء ذينك الفردوسين سعادة وغبطة لا حد لهما• وكان رايموند نظير اولئك الابطال المأسورين في حدائق ارميد المسورة بطلاسم من السحر • فنسي كل شيء ما عدا الفرح العظيم الذي كان يشعر به في تلك الساعة وتبسم تلك الفتانة العجيبة

وكان قد مضى على رجوع مراد بضع دقائق ولم يعد يسمع [illegible] في مثوى تلك الفتاة ففكر بارسفال في نفسه وهو [illegible] • [illegible] من تكون قد هربت

ثم انــه نفض عنه غبار الخمول ونهض وسار على غير هدى يتلمس رياش المخدع في الظلام وكان يستنشق روائح عطرية تنمش الفؤاد . ولمس الستائر وازاحها فدخله نور لطيف مكنه من رؤية معبوده وهيكله . فكانت واقفة الى جانب المصباح الذي اوقدته خائفة ولم تكن تجسر على التحرك وكانت عيناها شاخصتين الى الباب كأنها تنتظر شيئا والهلع بالغ منها فازجه سرور سري بوجودها على مقربة من ذلك الشخص الذي انقذته ولما ابصرته يخطو نحوها نادته بخشونة قائلة له . لا تدنُ مني

ولكنها لم تكد تفوه بهذا الكلام حتى اطرقت برأسها الى الارض وعلت حمرة الخجل خديها فكأن هيئتهــا كذبت مقالها . فتوسل اليها رايموند قائلا . ياوردة . لا تخافي مني شيئا . فلست سوى عبدك واسيرك . . . فان شئت ذهابي ذهبت لساعتي . وان هم قتلوني فلست مباليا بشيء . لقد نظرتك ولم يعد لي مطمع بالحياة

ولما سمعته يتلفظ بحب الموت انتفضت انتفاض عصفور بلله القطر . وابدت بحركاتها انها تنكر عليه ذلك الكلام ولكنها وقفت عند هذا الحد من الاعتراض ولما خطا بارسفال نحوها خطوة واحدة اضطربت من ام رأسها الى اخمص قدمها ولكن دون ان تحجم الى الوراء . وبقي يدنو منهــا وهي شاخصة اليه بدهش حتى فتح ذراعيه وضمها الى صدره وهي كأنها قطعة من الجلد . فقال لها بصوت خافت وحنون . ياحبيبتي . وكان صوته اشبه شيء [illegible] الصوت الذي يحلفون بــه اليمين . وكانت عيناه المضطرمتان تفتش عن [illegible] ذاتنا تتحولان عنــه . فحمل بين ذراعيه وردة الى ذلــك [illegible] الذي كانت ستائره السميكة تحجبها عن الابصار وتخفي

بارسفال بعينيه في الظلمة دون ان يستطيع ان يبصر شيئا وسمعت اذنه المصغية لادنى حركة صوت فتح النافذة ومحاورة بين الفتاة المصرية والمملوك . واصغى بارسفال الى ذلك الصوت وقد تضعضعت قواه وتبسم بحزن مرّ لان كذب وردة ملأ فؤاده حنقا وشكرا في وقت واحد وكان يقاسي عذابا ويسر سرورا عظيما بوجوده ذاته على كثب من تلك الفتاة التي كان يحبها محبة ما وراءها من مزيد... وكانت تعرف كيف تقصي عنها مرادا وبعبارة اخرى كيف تطرده طردا... واراد بارسفال ان يتمثل بحب وردة ويماثلها فيه عند مشاهدته ما شاهده فيها من المخاطرة بالنفس لانقاذه ثم ان النافذة اوصدت وسمع اقدام المملوك في الحديقة المنتشر فيها لواء السكينة واقفل الباب الحديدي . وسمع رايموند ايضا صوت المفتاح الذي اداره سعيد مرتين في القفل وكان الاسير يأمل ان يقضي ساعات بل اياما في محل لا تناله فيه المكاره . ولم يعد يجري في باله البتة ذكر المعسكر الفرنساوي فان واجبات الجندي زالت من ذهنه كأنها لم تكن شيئا مذكورا وانحصرت حياته ضمن جدران الكرنك وفي طي حديقة وردة وحجرتها فقد كانت تملاء ذينك الفردوسين سعادة وغبطة لا حد لهما . وكان رايموند نظير اولئك الابطال المأسورين في حدائق ارميد المسورة بطلاسم من السحر . فنسي كل شيء ما عدا الفرح العظيم الذي كان يشعر به في تلك الساعة وتبسم تلك الفتاة العجيبة

وكان قد مضى على رجوع مراد بضع دقائق ولم يعد يسمع ادنى صوت في مثوى تلك الفتاة ففكر بارسفال في نفسه وهو خائف . من الممكن ان تكون قد هربت

ثم انــه نفض عنه غبار الخمول ونهض وسار على غير هدى يتلمس رياش المخدع في الظلام وكان يستنشق روائح عطرية تنعش الفؤاد . ولمس الستائر وازاحها فدخله نور لطيف مكنه من رؤية معبوده وهيكله . فكانت واقفة الى جانب المصباح الذي اوقدته خائفة ولم تكن تجسر على التحرك وكانت عيناها شاخصتين الى الباب كأنها تنتظر شيئا والهلع بالغ منها فمازجه سرور سري بوجودها على مقربة من ذلك الشخص الذي انقذته ولما ابصرته يخطو نحوها نادته بخشونة قائلة له . لا تدنُ مني

ولكنها لم تكد تفوه بهذا الكلام حتى اطرقت برأسها الى الارض وعلت حمرة الخجل خديها فكأن هيئتهـا كذبت مقالها . فتوسل اليها رايموند قائلا . ياوردة . لا تخافي مني شيئا . فلست سوى عبدك واسيرك ... فان شئت ذهابي ذهبت لساعتي . وان هم قتلوني فلست مباليا بشيء . لقد نظرتك ولم يعد لي مطمع بالحياة

ولما سمعته يتلفظ بحب الموت انتفضت انتفاض عصفور بلله القطر . وابدت بحركاتها انها تنكر عليه ذلك الكلام ولكنها وقفت عند هذا الحد من الاعتراض ولما خطا بارسفال نحوها خطوة واحدة اضطربت من ام رأسها الى اخمص قدمها ولكن دون ان تحجم الى الوراء . وبقي يدنو منهـا وهي شاخصة اليه بدهش حتى فتح ذراعيه وضمها الى صدره وهي كأنها قطعة من الجماد . فقال لها بصوت خافت وحنو . ياحبيبتي . وكان صوته اشبه شيء بالصوت الذي يحلفون بــه اليمين . وكانت عيناه المضطرمتان تفتش عن عينيها اللتين كانتا تتحولان عنــه . فحمل بين ذراعيه وردة الى ذلــك المخدع السري الــذي كانت ستائره السميكة تحجبها عن الابصار وتخفي

صوتيهما ولم يكن النور يصل اليهمافيه الا ضئيلا وعن بعد فيبقى وجه الفتاة المبرقع بالخجل مستورا في الظلام عن انظار الفرنساوي المخيفة من فرط تهيجه

وثاب الروع شيئا فشيئا الى تلك الفتاة المضطربة وصارت تجيب الشاب على الاسئلة التي كان يلقيها عليها . وتمكنت من اخفاء ما لم يكن يحسن بها ان توقفه عليه . ففي بدء الامر كانا يتحدثان عن امور تافهة ويتبادلان عبارات الشكر والتجمل . ولكنهما كلما كانا يتحققان انهما اصبحا وحدهما في ذلك الليل البهيم الطويل الذوائب كانا يفتحان بالتناوب قلبيهما ويستودع كل منهما الاخر اسرار حبه . وبدأ رايموند يكشف بغير حياء ما كان يجول في قلبه من العواطف نحو تلك الفتاة البارعة الجمال . فقال لها . منذ اليوم الذي رأيتك فيه في مصر العليا فقدت كل لذة في هذه الدنيا ما عدا الافتكار بك فانك حللت في كل جارحة من جوارحي واصبحت مقلتاك النجلاوان مرسومتين في قلبي وباتتا تنيرانه بانوارهما المتألقة ولم اعد ارى حوالي سوى شخصك المحبوب . وكنت خائفا خوفا عظيما من نسيانك اياي ......

فقالت له الفتاة المصرية بحرية ضمير وسذاجة . لم اكن لاستطيع نسيانك . ولكنها ما عتمت ان هبت في صدرها نسمات الحياء فحاولت ان تموه عليه الحقيقة بقولها له . لانقاذك اياي من الهلاك

— وانت في نوبتك تنقذيني من الموت هذا المساء . فكل منا لا عليه ولا له . وبناء عليه فلا ينبغي لك من الان فصاعدا ان تذكري لي شيئا عن معرفتك الجميل نحوي ... فلا ابتغي الا الحصول على محبتك

— لا استطيع بغضك لانك كريم الاخلاق وحديد الفؤاد ولين الضريبة وانا شاعرة بانك تحب في ولد افقدت امها ولم يبق لها من عضد تستند اليه

وكانت تريد ان تؤخر التفوه بالكلمة التي اوشكت ان تحرق شفتيها بان تفتح باب حديث اخر فقصت عليه حريق منزلها وهربها الى سوريا وما عاملها به منصور من تلك المعاملة الدالة على شرف نصابه وكرم سجاياه ولم تذكر له عمدا ما كان مراد يبديه لها من شدة التعلق بها وما كانت تشعر به من الحزن الجسيم منذ تخرم والدها لتيقنها بان اخبارها اياه بتلك الامور تدله على تعلق شؤونها بذلك المملوك وكانت تشعر في قلبها بان مثل تلك الاخبار تلقي الكآبة في قلب رايموند

وكان رايموند يسمع حديثها وهو ثمل بخمرة حبها وملتذ بذلك الصوت الرخيم لانه كان يحبها محبة ما وراءها من مزيد تجعله يضحي لاجلها كل ما عز وهان في هذه الدنيا . وكان لاجل تلك الفتاة يستطيع ان ينكر وطنه واله وكل شيء . وقد برحته الافكار السامية التي حملته على المجيء الى افريقيا بصفة رسول المدنية والحرية والثورة الفرنساوية وحل محلها حب وردة الذي ملاء قلبه وفكره وكل جوارحه واصبح رقا لها تلذ له العبودية فقال لها بصوت مضطرب . ياوردة انك لا تذكرين لي السبب الحقيقي لشفقتك ... قولي لي بانك لم تنقذيني الا لانك تحبينني .. واكملي معروفك بذكر السبب الوحيد الذي يلذ لي ذكره

فقالت له الفتاة باضطراب . لا ادري معنى كلامك فانت تتكلم بلغة الشعراء ولهجة رواة القصص في السهرات ... فليس في بلادك للكلمات الفخمة التي تلفظها معنى بليغ ولكن عندنا تتعلق عليها الحياة او الموت

— ولكنني لا افصح عن شيء اخر ياوردة ولا احلم بغير ما تحلمين

— وهل افتكرت بكل ما يفرق بيننا

— لا شيء يفرق بيننا سوى كلام فارغ واوهام خالية من المعنى . لقد اتيت لانقاذك ولا هم لي سوى امر واحد اؤمل الفوز به . الا وهو ان اجعلك تحبيني وان اقف عليك كل حياتي

— انت لا تعرف شيئا عن حياتي

— اعرف اني احبك . ولا حاجة الى معرفة غير ذلك ... ولو كنت تحبينني لما كان ماضي اعز مني لديك ...

— اخطأ سهم ظنك المرمى فلست سوى امرأة

— ان صورة الشرق تتمثل لي بكل ما فيها من محبة الذات والغلظة ... فهو يسترق نفوسكن — ويحصر حياتكن ويجور على اقدس عواطفكن

— ان الرجال في كل مكان هم لمتسلطون ...

— اخطأت ياوردة فانك لم تفصحي عما في جنانك وانا اعتبر تشبيهك اياي بالمماليك ذويك مما اراد خافضا لقدري ومتنقصا لشأني فهم ذوو اخلاق فظة وعلى جانب عظيم من الاستبداد . وقد قلت لك ذات مساء انا اتينا الى العالم القديم مبتغين ان نتحفه بالعظمة والجودة والحرية . وسنبذل الجهد لتحقيق هذه المقاصد النبيلة ...

وبلغ منه التحمس الى تذكره المهمة التي جاء الى تلك الاصقاع لاجلها ولكنه لم يلبث ان خضدت شوكة فصاحته عند روءيته ذاته في ذلك الموضع الذي ترف فوقه فيه اجنحة الحب والذي القي فيه بين يديه ذانك الجمال واللطف وتلك الشبيبة . وجعلت وردة تقص عليه ما جرى لها

في حداثتها في مصر العليا والمخاوف التي قذفتها على فؤادها الانقباض المقدسة وتخلل كلامها حكايات وهمية جعلته مسهبا ولكنها كانت من حين الى اخر توجز فيه تاركة فترات اختيارية ٠ وامتقع وجهها لسماعها اصواتا ساقت اليها الذعر واغاني ملاءت قلبها بهجة واغتباطا فاضطرمت يداهـا وتفرست بعينيـن ذابلتين بعيني رايموند المدهوش بجمالها الفتان المتوهم ذاته في الفردوس ٠٠٠

فسقيا لها من دقيقة خلوا فيهـا وتعانقا وقلب كل منهما يشعر بخفقان قلب الاخر في ذلك الليل البهيم وسكرا من خمرة الغرام ٠ وزالت من وجههما كل الموانع وتحطمت قيود الشرائـع البشرية ولم يكن ثمت سوى شخصين في عنفوان الشباب افرغ عليهما الحسن حلة جميلة نقية وخادتهما الشهامة والصدق فغلى الدم في عروقهما وعادت اليهما همتهما ونسيا كل ما جرى لهما في ابان الفراق وقال رايموند متنهدا ٠ ياحبيبتي ٠٠٠ يازوجتي ٠٠٠٠

وقالت وردة وهي تقبل شفتي رايموند قبلة يصلح ان نسميها ختم الخطبة بينهما ٠ وانا احبك ٠٠٠٠

وكانت ليلة من الليالي الشرقية التي تضطرب فيها الطبيعة نفسها ويضيء كـل شيء تحت الكواكب حيث يتوهم الانسان ان السماء انحنت فوق الارض وكادت تعانقها

وكان في الميناء زورق ينساب كالافعى على صفح الامواج الساكنة ٠٠٠ والمشاعل تسير على اسوار المدينة وابراجها والسكون سائد في قصر الجزار الغائص سكانه في لجة الكرى وكل منهم يرى رؤيا الاخر ٠ فهذا يحلم انه يفتك بالاعداء فتكا ذريعا وذاك يرى في نومه انه يجمع الاسلاب ويحشد من جراء ذلك ثروة طائلة وذلك يحلم انه يثأر لنفسه من عدوه وغيره يرى في

الحلم غير ذلك من الاشياء ولكن كان في احدى زوايا ذلك القصر بعيدا عن الضمائر الناغلة والمطامع السافلة مخدع يثوي فيه شخصان لم يكن يخفق قلبهما الا بالحب الطاهر الصريح

السقوط في الفخ

١٩

وعـاد مراد الى القصر واجما كئيبا كأنه على احر من جمر الغضى وشوك القتاد وهو يتوعد محمدا وصفدبان يجعلهما عبرة رادعة ويتهدد بنوع خاص شريكهما الثالث السري الذي بقي مختبئا في المدينة بعد ان سهل لهما سبيل الفرار

ودخل مراد على الباشا وقص عليه الحوادث التي جرت في الليل فسمى له الجزار ضباط القصر الذين يشتبه بامانتهم ويخشى من علاقاتهم مع العدو . واقاما اناسا يرصدون سراحركاتهم وسكناتهم وعمدا الى الطريقة نفسها مع خـدام القصر وتوهما انه لا يمضي عليهما بضع ساعات حتى يدركا وطرهما

وانطلقا معا الى المرفأ ليتحققـا بنفسيهما عن المواضع التي يمكن بهـا الوصول اليه وبحثا عن مصب القاذورة ووجهتها وتسقطا البحارة عن ضمائرهم

فقال لهما بعض البحارة الانكليز ان الزورق الذي كان مرابطا هنا سار الى جهة حيفا وقد جرته مياه قردانه الى البحر ونحن ارجعنـاه الى مرساه . وامس صباحا استعاره محمد ليتنزه فيه في الميناء

فقال مراد . وهذا اثر الوحل الاسود الممتزج بمواد فاسدة تركتها على الارض اقدام الشخصين الحافية وملابسهما الملطخة بالاقذار فانهما مرا في النفق وقد بقي علينا ان نعرف النقطة عينها التي دخلا منها . فقال الجزار وهو غير مبال . وعلى كل حال اری ان هذا النفق المنبعثة منه الروائح الكريهة لا يتصل بقصري لانه يمتد الى جهة بعيدة في حدائقي ...

— ولكنه يدور على بعد مائة خطوة من هذا المكان وبزاوية قصيرة صاعدا تحت قصرك ... الا يوجد في عكاء مصوَّر « خريطة » يبين انفاقها ودهاليزها تحت الارض ...

— ان جميع هذه الاوراق قد اعطيت للامير فيليبو ليستعملها عند مسيس الحاجة اليها

— هلم بنا نعيد النظر فيها

ولم يكرم فيليبو وفادة الجزار ومراد عليه لازعاجهما اياه في تأملاته فسألهما باهتمام قائلا . اتقولان ان ذينك الفارين فرنساويان

— لا ولكنهما مسلمان

فاختصر فيليبو زيارة الجزار ومراد له بقوله لهما . ان المصورات التي كانت لدي قد فقدت مني ولا اذكر انها كانت تشير الى وجود انفاق ودهاليز تحت الارض . واظن ان افضل شيء في الاونة الحاضرة هو مراقبة كل حركة تجري في المرفأ . وانا دار انه منذ عدة قرون حين احتل الفرسان الهيكليون مدينة عكا حفروا فيها معابر وانفاق تحت الارض ولكن المياه دخلتها لما هدمت جدرانها وهذا يدلني على الطريق الذي سلكه الجاسوسان .

— الا تخاف من كشفها حقيقة حالتنا لاركان حرب الاعداء

— لا . الم تقل لي انهما ذهبا لفحص البرج الكبير . فكيف عرفا اهميته في الحصـار ... وهـل غير الفرنساويون خطة حصارهـم وحولوا اطلاق قذائفهم من البرج الى السور الداخلي .

— لم يفعلوا شيئا من ذلك حتى الان وكل مـا اجروه هو انهم اوقفوا اطلاق القنـائف بعد ان اطالوا النظر في فحص السور كأنهم ينوون ان يغيروا حركة البطاريات ولكنها عادت الى الرمي على المحل نفسه

لا مرية عندي في ان الجاسوسين الفارين على جانب عظيم من البسالة وثبات الجأش ولكنهما لا يعلمان شيئا من فن الحصار نظير سواهما من بني وطنهما

قال فيليبو هذا الكلام وجعل يتبسم تبسما يدل على ما كان يثوي في فوءاده من الانتقام ثم اردف حديثه بالكلمات الاتيـة . وامـا الجاسوس الثالث فاني لا احفل به فهو ايضا تركي نظير رفيقيه يجهل حقيقة فن الحصار لانه لم يوعز اليهما بوجوب تغيير الخطة في الحصار ... ما لم ...

— ماذا تقول

— مـا لم تجتمع كلمة هوءلاء الفرنساويين الملاعين . وهذا لاينافي الواقع بل بالعكس ... ففي جيش الفرنساويين قد لعب الخلاف بين قائد المدفعية وقائد فرقة المهندسين . فهذا الاخير يعاكس تدابير كل رصفائـه القواد وقد اراد دومارتين منذ اليوم الاول هدم السور الداخلي بيد ان اركان الحرب اقاموا عليه النكير وقالوا ان قواعد الحرب تقضي عليهم بوجوب اطلاق النار على البرج ... واعلم ان الجاسوسين سيبذلان جهدهما على غير طائل في وصف هيئة استحكاماتنـا الداخليـة ولكـن اركـان الحرب

المذكورين سيصمون اذانهم عن سماع اصواتهما ولا يأذنان للمدفعية التي كانت قد صممت على تغيير الخطة الحربية ٠٠٠ وانا اراهن على صحة كلامي ٠٠٠ ولم يعد مراد والجزار يسمعان لقوله ومع ذلك فان فيليبو تمكن من الاستدلال على كل المشهد الذي جرى صباحا في المجلس الحربي الفرنساوي على اثر ما ابداه لهم الاعرابي محمد من التصريحات ٠ ودار في خلدهم في بدء الامر ان الاعرابي ورفيقه السوري خانا بارسفال واسلماه وجاءا يحملان لهم انباء كاذبة من لدنه ٠ ولو لم يتدخل ماتورل في المسألة ويحقق لهم امانة ذينك الرجلين لكانوا ولا محالة نصبوهما هدفا للرصاص

وبعد مفاوضات ومناقشات عديدة فاز اركان الحرب بمبادئهم مع ما كان يصحب الخطة التي توخوها من الفشل وذهب استطلاع رايموند على غير جدوى

وبقي لمراد بارقة امل وهو ان سعيدا يمكنه ان يتذكر شيئا مما يمكن مراد العودة الى الاثر الذي كان يقتص ولذلك جعل يحفي في التنقيب عن الخصي ٠ ولما اهتدى الى مقره وجده مضطربا مدهوشا ولم يجد صعوبة عظمى في تسقطه عن ضميره فان وردة كانت قد ساقت اليه قلقا شديدا من جهتها ٠ هل كانت مريضة او مصابة بداء المالنخوليا ٠٠٠٠ وهل كانت تريد الموت جوعا ٠٠٠ فانها كانت قد اغلقت بابها في وجه سعيد وكانت تنتهره بغضب كلما كان يتوسل اليها ان تأذن له بالدخول لقضاء حاجاتها ٠ وسأله مراد عن محمد وصاحبيه المجهولين فلم ينقع له سعيد غلة ٠ وبينا مراد يهم بالابتعاد عنه سمع منه هذه الكلمة ٠ انها تكرهني وقد اخذت مني مفتاح

الجنينة

ــ فعلت هذا الامر عقابا لك على فتحك لي الباب هذه الليلة

ــ من الممكن ان يكون الامر كذلك

ــ ان هذه المتعجرفة تعاملني كأني لست حاصلا هنا على سلطة منصور الغائب ٠٠٠ فاذهب وقل لها اني اريد مشافهتها

ــ انها لا تفتح بابها

ــ نادها من وراء بابها وقل لها انها يجب عليها ان تفتح بابها حالا حبا بمصلحتها ٠٠٠

ففرح الخصي من حل تلك المشكلة بتحويل فظاظة وردة وشراستها عنه الى غيره ويتسنى تقديم خدمته لها وقال ٠ ها انذا ماض اليها مسرعا

وقرع الباب مدة طويلة دون ان ينال منها جوابا ولما رضيت الفتاة المصرية بان تخاطبه من وراء بابها الموصد اوقفها على حقيقة مهمته ٠ ففي فاتحة الامر ترددت ولكنها بعد ان تروت قليلا امرت الخصي باستقدام المملوك اليها

ولما دخل مراد وجدها في محل قليل النور مضطجعة على مقعدها وهي كأنها مضنكة تعبا ٠ وكان لمعان عينيها يثبت حقيقة الحمى المصابة بها ٠ وقد اضطرت الى احتمال تلك المعاملة العنيفة من المملوك لكي يمحو من وهمه اثر الريبة

فشعر مراد بان محاسنها الفتانة تسحره وجعل يعتذر عن اصراره بطلب الدخول عليها قائلا لها بلطف حقيقي ٠ أأنت متوعكة المزاج ياوردة ٠٠

ــ لا ولكن اطلاق البنادق في الليلة المنقضية حرمني لذة الرقاد ولذلك

صممت على النوم في هذا النهار مبتغية التعويض عما فقدته من الراحة

— أأنتِ تبتغين هذا الامر

ونظرت وردة الى مراد بعينين نجلاوين ذابلتين دون ان يطرف لها جفن امام نظره الدال على ارتيابه في صدق كلامهـا وقالت بلطف للخصي الذي كان يهم بترتيب مقصورتها . ياسعيد لا تدر هكذا امام عيني لانك تتعبني . فحين احتاجك ادعوك

وكانت لهجتها طبيعية ولم يكن صوتها مضطربا مع انها كانت في موقف حرج للغاية فرايموند كان واقفا وراءها تحجبه عن الابصار الستائر الملقاة على النافذة وكان اقل شيء يمكنه ان يبوح بسر وجوده في ذلك المكان

وشعر مراد بانه ذليل امام تلك الفتاة وتوهم انها تخاطب سعيدا في الظاهر وهي تعنيه في الحقيقة على حد المثل القائل . « اخاطبك ياجارة لكي تسمعي ياكنة » فاحتدمت نار الغضب في فؤاده وصمم على البقاء في غرفتها وقال لها وهو يلاحظ كل حركة من حركاتها . اريد ان اخاطبك عن محمد

فلم تبدِ ادنى حركة وقالت له وهي مشردة الافكار . واي علاقة لي بهذا الرجل . ولكنها عادت للحال وافتكرت في ما كان وراءها فانتصبت جالسة لتخفي اضطرابها وارتجاج الستائر وان نفس رايموند القريبة منها كانت توحي اليها السؤال الاتي الذي كان يهمها كثيرا وهو . هل قبضت عليه

— لا لانه فر هاربا بنفق

— والى اين ذهب

— ذهب الى معسكر الفرنسويين على متن زورق

فتبسمت تحت البرقع الذي كان يحجب وجهها لمعرفتها ان ذلك الكلام

يسر رايموند ثم انها جعلت تجيب مراد على اسئلته · والحق يقال انها لم تكن تعلم شيئا عن محمد ولا عن علاقاته وانها لم تكن تكذب في ما كانت تفوه به

فسر المملوك مما شاهده فيها من ظل البهجة وابدى لها اهتماما عظيما بهـا ولكنها استاءت منه مخافـة ان تكون تلك المعاملة قد ساءت رايموند دافعة اياه على الوقوع على خصمه والايقاع به ···· وهناك الطامة الكبرى والبلية العظمى ··· وقد حدث امر ازال مخاوفهـا من جهة والقاها من الجهة الاخرى في ورطة يشق عليها التخلص منها· وتحرير الخبر ان بارسفال كان قـد ترك على المنضدة غدارته المحشوة ولما اختبأ وراء السجوف ابقاها على المنضدة مغطاة بطرف الطنفسة فبانت الغدارة فاضطرب مدهوشا من روءيته ذلك السلاح وقال لها وهو يطيل النظر فيه متظاهرا بعدم الاكتراث بـه · من اعطاك هذه الغدارة

— ان منصورا اعطانيها لادافع بها عن نفسي

ولم تتلجلج في مجاوبتـه لان خطارة موقفها اولتها شجاعة شديدة ·· وبعد صمت قليل قالت لمراد وهي تقرأ على جبينه ما كان يهب في صدره من عواطف الحنق · ان منصورا قد اكد لي انها غدارة رجل فرنساوي قتل في سديمان · فاحترز تقليبك اياها ··· لانها محشوة

وجالت في رأس مراد افكار مائتة فباسرع من لمح البصر تمثلت له الايام التي قضاها في قصر الجزار وكان يعلم ان منصورا لم يعط الفتاة الا اسلحة عربية كثيرة الزخرف ··· وكان هو قد انتقاها لها ··· فكيف وصلت هذه الغدارة الى يد الفتاة المصرية ··· وحينئذ تمثلت لديه كل حوادث الليلة وعرف

ان في غرفة وردة عدوا ولم يكن ادنى ريب يخامر ضميره في ذلك الامر لان تموجات القلب كانت تمتد من قلب الواحد منهما الى قلب الاخر . فانطرحت وردة على مقعدها متمنية لو يسرع اليها عزرائيل مشمرا اردانه للقبض . وقبض مراد يده على غدارة الرجل الفرنسوي وناجى نفسه قائلا من من الثلاثة يجب علي ان اقتل . هو ام هي ام انا ...

وشعر بان وصمة الجريمة التي اتتها وردة قد علقت به ولم يلف نفسه قادرا على معاقبتها عليها لان محبته لها كانت اشد من الغيرة التي كانت قد ساورته . واصبحت الحياة مكروهة لديه ودار في رأسه هذا الفكر وهو . انه يراقبني ...

وتجلد مراد متسلطا على نزق الشباب واضغاث احلامه وشراسة اخلاقه وبدا بمظهر رجل جديد . وفي الوقت عينه ادرك عجزه عن اهلاك خصمه فان وردة كانت مستعدة لان تنهض وتحول بينه وبين شريك محمد وتعرض نفسها للقتل دفاعا عنه فحينئذ ترتفع اصوات العراك ويقوم جميع سكان قصر الجزار ليتبينوا حقيقة الامر ويعلم الجميع ان ذلك السلاح يدل على وجود رجل مسيحي في القصر ... ومعلوم ان مثل ذلك العدو كان مقتضيا عليه بالهلاك الا ان التقاليد الشريفة التي كان المماليك متقيدين بها كانت تقضي على مراد بان يبدأ بالفوز عليه بمكارم الاخلاق فقال لها بمنتهى الرصانة بلهجة قاض يصدر حكما يا وردة يجب علي الان ان اخبرك عن سبب مجيئي . ان نسل ابراهيم حاكم ولاية سديمان الذي اغتاله العدو ونسل منصور الجليل صديق شيخ بلدنا ومراد نائب الامير لا يمكن ان يدنسه جهارا جرم امرأة

وبدأ مراد مقالته بهذه المقدمة بعظمة حتى ان بارسفال الذي كان قد تهيأ للتدخل في الامر لبث جامدا في مكانه وناجى نفسه قائلا . كنت واهما انه يظنني هنا

— قبل دخول الليل يأمر الجزار بالتفتيش في غرفنا غير مستثن غرفتك للوقوف على اثر ذلك الشخص الذي فر من بين ايدينا ...

وكان مراد يريد ان ينعته باقبح النعوت ولكنه تجلد لعلمه ان مهمته تقتضي الصمت في مثل ذلك الوقت وقال وقد كادت بنائق صبره تنفتق . اذكري انك ابنة ابراهيم ....

ثم انه مضى وهو لا يربع على شيء ولا يبالي باصوات المطاردين المرتفعة وراءه وكانت وردة تضم الى صدرها رايموند مانعة اياه عن الاندفاع وراء مراد لأنه كان قد ادرك معنى تهديده . وكان مراد قد اخذ غدارة خصمه ولما وصل الى الرواق وقف مترددا قبل ان يجتاز العتبة التي دنستها خيانة وردة وجعل يفكر فيما اذا كان يحسن به ان يرجع منقلبا ليكتشف ذلك الظافر السري .... ولكنه قال . لا ينبغي لي ان ارجع لئلا يفور دمي ويدفعني الى قتله .

وعاد مراد فاخذ كل الاسلحة التي كان قد اعطاها للفتاة المصرية . وقد بدأ بفعله هذا يتخطى حدود الشهامة التي وضعتها له قوانين عترته

طارق

١٥

وكان مراد يزمجر كأنه وحش ضار فعبر الحديقة وهو يترنح من فرط الغيظ وقد نشرت على محياه ملاءة حمراء كانت تغشي بصره وبصيرته . وكان الدم يغلي في عروقه غليانا شديدا وهو يناجي نفسه قائلا . هما هناك ورائي وهما ينظران الي ومع ذلك فانا اتركهما ليخلو لهما الجو . ووقف بغتة ونفسه ظمأى الى الدم وفرائصه ترتعد سخطا وحنقا . وقال . ان انتقامي منهما اصبح الان مؤكدا ولذلك يحسن بي ان امهلهما لكي اجعل نزعهما طويل المدة وثقيل الوطأة عليهما .

وكان سعيد ينتظره خلف الباب فنظر اليه مراد ونفرت نفسه منه وكان يريد ان يطفيء لهيب الغضب في فؤاده . وبينا سعيد يقفل الباب اهوى عليه مراد بسيفه باسرع من وميض البرق فاطاح رأسه عن منكبيه والقاه على الارض يتشحط بدمه وشعر مراد بان وقرا ثقيلا انزل عن عاتقه . وانحنى فوق وجه سعيد وقال متذكرا مهمته . كان قد اوشك ان يقف على حقيقة كل شيء فهكذا يهلك كل الذين يعرفون الحقائق . ولما ثاب اليه الروع جعل يعمل الروية في ذلك الحادث ويسأل نفسه قائلا . من هو ياترى شريكه . وجعل يقلب في ذهنه افتراضات شتى ويقول ان ذلك السلاح الفرنساوي الذي وجده في غرفة وردة لا يدل دلالة صريحة على جنسية ذلك الشخص الملعون فان تلك الغدارة كانت اقصر من الغدارات التركية

تسهل تخبئتها تحت الثياب وكان من الممكن ان توجد في غنيمة مملوك من المماليك احرزها من سلب قافلة او قتل جندي متأخر عن رفاقه ومن المحتمل ان يكون لاحد خدام ابراهيم ومنصور معرفة بوردة وعلاقة معها ٠ اجل ان هذا الامر يصعب حدوثه ولكنه ليس بمستحيل ٠ ولا يبعد ان يكون سعيد واسطة بينهما ٠٠٠ بئس الغضب والعجلة ٠٠٠ اني عجلت في قتله ولقد كنت استطيع ان احمله على الاقرار بتعذيبي اياه تعذيبا مبرحا

ولم تكن تلك الاسباب جميعها تنقع غلته لانه كان قائما في وجدانه انه في حجرة ورده رجلا فرنساويا مختبئا بيد ان تلك الانسة المصرية لم تكن تعرف من المسيحيين سوى شخص واحد وهو ذلك اليوزباشي الجريء الذي خاطبها في مصر العليا وشغف بجمالها الرائع ٠٠٠ ومن الراجح ان يكون قد اوقفها في المعسكر حين كانت ذاهبة لتستقي ماء ونم لها باسرار حبه الفاسد ٠٠٠ لانها عادت الى البيت كثيرة الاضطراب ولذلك عمد مراد في ذلك الحين الى مغادرة مصر والمجيء بوردة الى مكان تحول الصحاري الواسعة بينه وبين المكان النازل فيه ذلك الفرنساوي اللئيم ٠ ولكن ذلك الشخص قتل في يافا حيث ساقته الاقدار الى ذلك المكان الذي اصمته فيه رصاصة من بندقية محمد ٠ وكان مراد يقول في نفسه لو كان الاعرابي شريكا له لما كان قد قتله ٠٠ ومع ذلك فاليوزباشي لا يزال حيا يرزق ٠ وما عتم مراد ان ضحك مقهقها وقال ٠ لا ظل لهذا الوهم من الحقيقة لان اليوزباشي قد قتل حين اخبر صفد الاعرابي بمقتل ابنه وكان ذلك الامر داعيا لهما الى الانضمام في سلك الفرنساويين للاثئار من مراد

وجعل مراد يشحذ ذهنه لعله يتذكر احدا من الضباط والجنود الذين

كانوا يحدقون به في اثناء اصدار ديزه الحكم عليه و كان قد ابصرهم ينظرون بشغف الى وجه وردة المحسور عنه اللثام فتذكر مراد هيئة غوران المملوءة من ماء الشباب وذكر ايضا انه رافق الفتاة ليلا حتى اوصلها الى البيت حيث كان هو على حبل انتظارها وهو كأنه على احر من الجمر ... ولكن كيف جاء الان الى عكاء مع الجيش المحاصر ... اجل ان اليوزباشي جاء الى ذلك الموضع ولو لم يقتل في يافا لما كان طيفه يزايل مخيلة مراد دقيقة واحدة وبعد هذه الافتراضات العديدة قال . لم يبق سوى رجالنا ورجال الجزار ومنصور ما لم يكن ذلك الضابط المخنث الوجه قد تسلل الى هذا المكان الذي سبقه اليه محمد وعليه فلا يمكن ان يكون الاعرابي قد تجسس احوالنا قبل ثلاثة ايام ....

و كان قد وصل الى هذه النتيجة المهيجة اكثر من سواها فانه حين كان امس ليلا يخاطب وردة كانت قد خلصت الفار و كان قريبا منها ولا مراء للمرة الاولى . وكانت وهدة الحزن والخجل المحفورة تحت قدميه تزيد عمقا

ووجده عبدالله جالسا على جثة سعيد مستغرقا في افكاره حتى انه لم يشعر بمجيئه فقال له عبدالله وهو مبتهج بالخبر الذي يحمله اليه . يامولاي انا اصبنا البئر التي نجا بها ذانك الرجلان في الليلة الماضية وقد انطفأت في المياه الاجنة المشاعل التي انزلناها الى اسفل تلك البئر

وكان عبدالله يرتعد وهو يتكلم عن ذلك الطريق الذي سار فيه الهاربان واراد ان يذهب بمراد الى البئر وهو يتظاهر بانه لم ينتبه الى القتيل الذي كان دمه يسيل على الارض لان المملوك كان قد تعود غير مرة ان يعاقب

بمثل هذا العقاب عبدا عاصيا او جنديا خائنا

ورفع مراد عينيه الى عبدالله فرجع هذا الى الوراء مذعورا ومرتابا في وجود عقل مراد في رأسه وفي اخر الامر قال المملوك بصوت غريب . لا يهمني كثيرا هذا الامر فاذهب وسد البئر واجمع كل رجالنا وجئني بهم ... واذا كانوا ينقصون احدا فتعال واخبرني عن اسمه

وادرك عبدالله ان الحادثة التي اخبره عنها لم تكن شيئا مذكورا بالنسبة الى ما كان ينتظر حدوثه . فاسرع لاجراء اوامر مراد . واتفق ان مملوكا كان غائبا ولم يكن احد يستطيع ان يهدي عبدالله الى مقره . فكانوا على الاسوار ام في المدينة ام في زورق من الزوارق ... ان ذلك الامر بقي مجهولا ولم يكن احد قد ابصره منذ مساء امس ذلك اليوم . ومضى عبدالله مهرولا الى مراد وقال له . ان كل فرساننا مجتمعون في فناء القصر ما عدا طارقا ولم يعلم احد له مقرا

وكان طارق جنديا شابا يحبه منصور حبا شديدا وقد هذبه تهذيبا كاملا رفع منزلته عن اترابه . وكان الاتراك يعجبون بجمال صورته وصفاء ذهنه فلم يرتاب مراد ابدا في ان طارقا كان الشخص الذي خبأته وردة في حجرتها

واقام الجنود حول القصر في الجهة التي كانت وردة مقيمة فيها وجعل نطاقا من الخفراء حول الحديقة وحينئذ قال لرجاله . ان خائنين قد سهلا ليلا طريق الفرار في وجه محمد ورفيقه وقد قطعت رأس احدهما سعيد فبقي عليكم الان ان تطلقوا النار على طارق الخائن الثاني حين يبدو لانظاركم وهاءنذا ماض لانفره من الملجأ الذي لاذ به ... واوصيكم وصية اخيرة

مانعا اياكم عن اقتفاء اثري مهما طرق اذانكم من الاصوات ...

فقال عبدالله معالجا ترقيق قلب مراد . ايامولاي ان طارقا شجاع ففي يأسه ....

— صه.... لي وحدي الحق بمعاقبته ونصبه هدفا لرصاص بنادقكم

وظن مراد انه بتلك الذريعة يضلل الافكار عن كل ما من شأنه ان يكشف ذلك السر الفاضح وان الجزار نفسه الذي يجري كل الاعمال باسمه لا ينبغي له ان يعلم شيئا من ذلك الامر فان رجاله سيبطشون بطارق قبل ان يتكلم .... واما من جهة وردة فان قلبه كان مترددا في الكلام ولاسيما في ما يتعلق باجراء حكم من الاحكام بحقها . وبعد طموس اثر طارق الذي كان مراد يعتبره شريكا لها في الجرم يخبرها بواقع الحال

وبينما هو داخل الحديقة وحده فكر في انه لم يترك اسلحة لدى ذلك الشخص المجرم ولكنه لم يتأثر كثيرا من ذلك العمل الدال على جنوحه عن الطريقة المثلى المقضي على الفرسان تحديها لانه لم يكن ينتظر وضع حد لذلك الحادث بواسطة البراز بل كان يعتبر انه يجب عليه اجراء حكم عادل

ودخل تاركا الباب مفتوحا وراءه وهو يقول في نفسه . ياليت هذا الشقي يعمد الى الفرار فيصيب حيفه خارج هذه الحديقة وهو افضل شيء لي لنيل امنيتي

وجرى في فكره خاطر اوقفه بغتة فقال بصوت منخفض . واذا لحقته وردة .... تصديت لهما بالقوة . وفضلا عن ذلك فانه منذ عرف الشريك المزعوم شعر بحدوث امر لم يكن يعهده قبلا وهو ان تلك الانسة المصرية اصبحت تجاهه كغريبة وان سقوطها عن كرامتها ساءه جدا . وكان



ضربة شديدة على مجد عترته · واي شيء يمنعه عن معاملتها باحتقار ...
ولماذا لا يعدها بانه ينسى كل شيء ان هي تركت عاشقها يهرب خفية دون ان تثير الظنون ...

ولما وصل الى قدام الباب قال في نفسه · هل اقرعه

ولكنه افتكر انه يجب عليه ان يدع المجرم يتوهم ان لـه السلطة الاستبدادية التي لا مرد لها وصمم ان يمهد سبيل الفرار في وجهه · فصعد درجات الرخام تاركا المنفذ الوحيد مفتوحا لذلك المجرم ليهرب منه ودار حول زاوية البيت ووقف امام النافذة مناديا بصوت الامر · ياطارق

ولما علم رايموند انه اصبح على شفير الهلاك نظر الى وردة متبسما · فقالت الفتاة وهي تنتفض من الفرح الذي كان يملاء فوءادها بكل سكينة · سنموت معا

ولم يقم رايموند النكير على ما صحت عليه عزيمتها لانه لم يكن يلقي بابا اخر لنجاة وردة مفتوحا في وجهه · وهب انشبت المنية اظفارها فيه فان وردة لم تكن لتنجو من انتقام مراد ومع ذلك فقد تعجب من جراءة ذلـك المملوك الفائقة الطبيعة وقال · ان هذا الرجل المتوحش يستطيع نظير القوم المتمدنين ان يتسلط على عواطف البغض الهائجة في فوءاده · ولعمر الحق ان دماثـة اخلاقـه وان تكن ناجمة عن التيـه والخيلاء تقتضي نظم عقود الثناء على السلالة المنتمي اليها · فقالت وردة · لا يلبث ان يعود الينا متغيرا لافكار ·

— اظنك مخطئة في وهمك فلدينا وقت كاف ولا بد من انه يتخذ كل الذرائع لاخفاء تخرمنا لان كبرياءه توحي اليه انتظار الليل لقضاء عمله

وكانت وردة مطوقة عنق رايموند بيديها فقالت له · انك لا تعرفه ...

فلنمت ونحن على هذه الحال ···· اتريد ذلــك ···· اقتلني ياحبيبي رايموند ···

— لم يبق لدي اسلحة

— ضمني الى صدرك واضغط علي بكل قوتك ضغطا يزهق روحي

— سقيا لك من بنية ···

ثم انه نهض وعوامل القلق تتجاذبه وقال · ان محمدا في معسكرنا ولكن هل نجح ياترى في المهمة التي انتدبته اليها ····

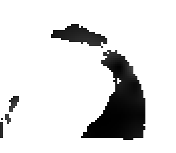
وفتح رايموند النافــذة واصغى فسمع اصوات المدافع الفرنساوية تنطلق من حين الى اخر بفترات مرتبة وقال بكآبة · ان البطاريــة لا تزال تطلق القذائف على البرج عينه ··· فاما ان يكون الاعرابي قد اساء القيام بمهمته واما ان يكونوا قــد اصموا اذانهم عن سماع صوته

وكان يتأسف بنوع خاص على تصرم حبال حياته على غير طائل · وللحال هبت في صدره روح الجندية وانفت نفسه من الموت بدون نتيجــة تذكر فقال بحزن عظيم بدلا من ان يعيش الواحد منا للاخر في هذه الدنيا سيجمعنا الموت

— اصبت فنحن الان في زاوية من القصر خالية من السكان تحف بها افنية تقيم بها الخفراء وحدائق تراقبنا فيها عيون مراد ولذلك يقضي علينــا موقفنا بان نقصر افكارنا على الغبطة التي تبدو لنا في هذا الوقت الاخير

فضمها الى صدره ضمة تعتبر عما كان يجول في ذلــك الصــدر من عواطف الحب الشديد لها وقال لها ·

لا احب البتة ان تعيشي بعد موتي فانا اخاف···



— وماذا تخاف

— اخاف ان يصفح عنك مراد

— انت مخطئ في وهمك وكيف يمكنك ان تظن ...

— رأيت في عيني هذا الرجل بوارق حب شديد لك تلمع وراء غيوم غضبه

فقالت له وهي باقية مطوقة عنقه بكلتا يديها لا شيء عندي في هذه الدنيا يعادلك ... فانا زوجتك ... الموت وحده يمكنه ان يجمعنا .... اجل انت مصيب فانا لا استطيع ان اراك تموت قبلي ولذلك فساستقبل الموت قبلك

— وكيف يكون ذلك

فقالت له متبسمة . انظر الى طريق النجاة

— ما هذا ... انها والله قنينة فيها سم زعاف

— اخذتها الليلة وسألجأ اليها عند مسيس الحاجة فانا احبك بكل جوارحي

فنظر اليها كما ينظر العابد الى المعبود ولكنه الفاها ثابتة في عزمها فلم يعالج الاحتجاج على عزمها لتيقنه انه يبقى عقيما لان شبيبة وردة كانت قد انقضت ودخلت معه في طور يصح ان نسميه طور الاستعداد للموت . وعليه فان انتحارها على مهل كان اجدى وانفع لها لان العقاب الذي يعده المماليك لمثلها كان عنيفا جدا ...

ولم يكن ادنى شيء يكدر وحدتهما فثملا من خمرة الغرام وارتفعت افكارهما عن الامور الارضية محلقة في جو الخيال . وبينا هما على تلك الحال

واذا بوقع قدمي مراد في الخارج يطرق اذانهما فقالت وردة بصوت ضئيل . جاء مراد

فقال رايموند وهو متهيئ للموت . فليأت ... ولكنه وحده ... ويحا له من رجل غدار ...

— لا اريد ابدا ان يعذبك فستشرب ما يبقى في قنينتي وترقد الى جانبي حين تسمعه يعالج الباب ليفتحه

فراق بارسفال كلام وردة وقال لها متنهدا . ياوردة ليودع كل منا الاخر بقبلات تجري على شفاهنا نفس كل منا الى الاخر

وعدلا عما كانا صمما عليه حين رأيا ان مرادا غير الخطة التي كانا متوهمين انه سينهجها . فقالت وردة . عدل عن قرع الباب وترك باب الحديقة مفتوحا ... ولم يسد المنفذ الوحيد للهرب فماذا يريد ان يفعل يا ترى تحت نافذتي

وعند سماع وردة ورايموند اسم طارق التفت كل منهما الى الاخر كالمنزول به وهما لا يعلمان شيئا من خطة عدوهما . وابصراه يثب بغتة الى الوراء مصغيا الى الاصوات الاتية اليه من جهة الشارع المجاور واندفع كالسهم المارق والحسام مشهر بيده الى ناحية باب الدار المفتوح . فصاح بارسفال والامل يفيض في صدره . القتال مشتبك

فقالت وردة . اخطأت يارايموند فان السفاحين قادمون ... الوداع ياقرة العين وياحشاشة النفس .....

فلم يجبها بشيء بل كان ينظر الى الخارج لعله يتبين امرا جديدا في الشارع ... فشاهد مراد عند عتبة باب الحديقة متصديا لكل من يريد

الدخول ومصدرا الاوامر الشديدة وسمع صوت امر يقول باللغة الفرنساوية الى الامام ... اطلقوا النار .....

وطبق الفضاء دوي العيارات النارية فقال رايموند للفتاة التي كانت منطرحة على صدره. ان الفرنساويين قد جاءوا ... وقد دخلوا المدينة... ونجونا ... تعالي ....

وذعر رايموند من صمت وردة ومن روءيته اياها تفلت من بين يديه وتنطرح على المقعد فاقدة الحس ورأى عند قدميها قنينة السم وقد اهرق على الطنفسة ما كان باقيا فيها فلساعته ادرك واقع الحال وعلم ان وردة عند سماعها اصوات العيارات النارية تجرعت السم الناقع لتنجو من شر السفاحين. وهي الآن تجود بنفسها بين يديه فاندفع رايموند الى الخارج نحو المكان المضطرمة فيه مواقد المعركة وجعل يصيح بملء فيه . الينا ... مدوا لنا ايدي المساعدة ايها الفرنساويون ...

وخز ضمير الخائن

١٦

وبينا مراد يهم بمناداة طارق للمرة الثانية تحت نافذة وردة ارتفعت الضجة وراءه في الشارع فسمع اصواتا تنادي يا طارق يا طارق

ففكر المملوك في نفسه ان طارقا كان قد فر وانه عاد وسقط بين يديه وسار مراد مهرولا نحو فناء القصر والسيف مصلت في يده ولكنه رأى مشهدا فجائيا اوقفه وصيره كأنه قطعة من جماد . فمن جهة ان الاتراك



يتهددون طارقا ويصوبون اليه بنادقهم وهو كالمنزول به ومن جهة اخرى كان وراء طارق فصيلة من جنود الانكليز بقيادة امير الاي • فظن هذا القائد ان مماليك مراد تتوعده بالقتل فاصدر اوامره باللغة الفرنساوية مشيرا الى ذويه بان يهجموا عليهم ويبطشوا بهم

فصاح مراد وقد اعمى الغيظ بصره وبصيرته عند روءيته عواقب عمله الوخيمة وقال اطلقوا النار على طارق•

وقبل ان يعلم ذلك الشاب سبب الاعتداء عليه هوى الى الحضيض وقد اصابته رصاصات اطلقها عليه رجال مراد وكان الى جانبه الضابط الانكليزي • وصرع ايضا جنديان انكليزيان فحينئذ ارتد الجنود الانكليز عنهم وقابلوهم بالمثل بامر زعيمهم فجندلوا ثلاثة منهم وصاح بهم الضابط الانكليزي دالا اياهم على مراد • اطلقوا بنادقكم على هذا اللئيم •••

وبينا هم على تلك الحال واذا بصياح بارسفال قد ملاء الفضاء وهو يستغيث مناديا باللغة الفرنساوية • فامتقع وجه الضابط الانكليزي وامر رجاله بانزال اسلحتهم عن اكتافهم

والتفت مراد في نوبته فاصابته رعشة قوية وخرج الى الشارع وهو على غير هدى من امره لانه كان ينظر ذلك الذي كان يظنه قد قتل في يافا آتيا اليه ولم يكن تنكره ليخفيه عليا فندم على معاملته وردة باللطف وعلى حقنه دم خصمه ووضع يده على عينيه كأنه يرفع بهما عنهما غشاء كان يغشي بصره وشعر بان كآبة شديدة توهن قوته • فمر رايموند امامه بسرعة البرق وانسل بين الانكليز ملتجئا اليهم ولما وصل اليهم وتأمل فيهم عرفهم انهم انكليز • ولما بان له خطأه اراد الانتكاص على عقبه والعودة الى

الحديقة ليشاهد وردة تجود بنفسها بين يديه .. ولكن تصدى في وجه حاجز من المماليك فناداه الضابط الانكليزي قائلا له . سلم لنا ياحضرة السيد ..

واحاطت به من كل ناحية حراب بنادق الجنود الانكليز وسمع صوت عيار ناري تلاه سقوط رايموند على الارض مصابا برصاصة في ظهره . فان مراد غاب عن الصواب وارتكب هذه الجريمة التي جعلت الانكليز ورجاله انفسهم يتذمرون منه . وصاح به الضابط الانكليزي متهددا اياه اتريد ان تقتل اسراي بين يدي . لقد طفح الكيل يامراد ...

فقال مراد . انت جندي جاحد ايهمس في ضميرك ان تعلمنا امثولة الشهامة

وللحال قال رايموند بتعزز بعد ان ثاب اليه الروع . اولست فيليبو .

وكان لكلمة رايموند تأثير على الجاحد حتى انه خفض غدارته بعد ان كان قد صوبها على مراد وخاطب رايموند قائلا له . انت اسيري ياحضرة السيد

— تبا للحالة التي صرت اليها ... اقتلني ... انا يوزباشي من اركان حرب بونابرت

فتأثر فيليبو من سماعه اسم بونابرت وقال . لسنا اتراكا . خذوا هذا الرجل الى غرفتي وليخفره عشرة جنود

والتفت رايموند الى مراد وقال له . يامراد انقذ وردة اذا كان ذلك الامر مستطاعا لك فانها تجرعت سما

وكان رايموند معذبا من رؤيته المملوك يسرع بدخول الحديقة . فقال والغيرة تتأكل فؤاده . انه يحبها محبة لا يحيط بها نطاق الوصف وقد

نسي بغضــه لي وانخذال ذويــه امام الانكليز الذين يتهددونه بتمفية اثارهم واخذوا رايموند عنفا وعلى رغم منه ٠ فصاح بهم الامير الآتي قائلا ٠ احترموا منزلته ٠

ثم انه التفت الى عبدالله وسألة قائلا ٠ اتريد ان تقول لنا لماذا اطلقتم النار علينا

— لم نطلق النار عليكم ولكن على طارق الخائن ٠٠٠

— وكيف كان ذلك

— لا اعلم ٠٠٠ وانظر الان الى ما فعله مراد بشريكه ٠٠٠

قال عبدالله هذا الكلام ودحر برجله جثة سعيد

فقال فيليبو ٠ مساء امس اخذت معي المملوك الشاب ٠٠٠ وكان وحده يستطيع ان يكون ترجمانا بيني وبين الدروز الذين كنا نفاوضهم بالانضمام الينا وكان طارق يحسن التكلم بلغتهم وقد بقي معي الليل بطوله يفاوضهم في ما كنت قد انتدبته اليه ٠ واليوم عدت به مع رماتي ٠ فهل تريـد ان توقفني على كل ما جرى

— اجهل ما تبتغي معرفته مني ٠ ولا ادري شيئا سوى ان طارقا كان مقضيا عليه بالهلاك لان الزعيم كان قد اظهر ارادته في هذا الامر

— ويحا لكم من وحوش ضارية

قال فيليبو هــذا الكلام وسار برجاله الى حديقة قصر الجزار حيث كان رجال مراد مقيمين بقصد الدفاع وكان يهمه كثيرا ان يجتمع باسيره وينال منه كلمة شكر وميــل ولكن استقبال بارسفال له جمــد الدم في عروقه ولم يمكنه من مقابلته بالغضب

وسأل فيليبو طبيب القائد الانكليزي الذي جاءوا به الى الاسير قائلا له . ما رأيك في هذا الجرح.

انه خفيف فالرصاصة مرت فوق العظم عند اسفل المنكب اجل انه يشعر بالم منه ولكن لا يوجد هناك خطر على حياته ... والان استأذن منك ياحضرة الامير الاي بالذهاب الى الجزار

— المعالجة مماليكه الجرحى انت ذاهب اليه

— لا ولكن لمعالجة امرأة تجرعت سما ... وهاءنذا ذاهب اليه على جناح السرعة

فقال له رايموند متوسلا . ياحضرة الدكتور ...

فقال الطبيب متعجبا . ماذا تريد ياحضرة السيد ...

— ان هذه المنكودة الحظ هي ... خطيبتي ... وزوجتي ... اتعدني بان تقول لي ...

— ولكن

فلم يدعه فيليبو يكمل مقاله بل قال له . سر وانا اسير معك لان الباشا دعاني اليه لكي اوقفه على حقيقة ماجرى

وتأسف بارسفال على جرحه عواطف الخائن وقال في نفسه . من ياترى يمنعه عن الانتقام مني .... وجعل يلوم نفسه لتركه وردة على تلك الحال ولانخداعه بنجاة الفرنسويين وكان يشعر بحمى مسببة عن جرحه واستاء من مراد لانه لم يصب منه مقتلا بالرصاصة التي اطلقها عليه واقسم بانه سيصرم حبال حياته بيده ولا يعيش دقيقة واحدة بعد موتها . وبينا هو على تلك الحال واذا باصوات قنابل المدافع تدوي في الفضاء فانتفض من

شدة الفرح لعلمه ان بطارية دومارتين كانت قد غيرت خطتها في اطــلاق المدافع وصوبتها على السور الداخلي بدلا من البرج الحديدي وانه سيكون لموته فائدة لبلاده لتيقنه انه سيهلك ولا محالة لان فيليبو لم يكن يتدخل ابدا لانقاذ اسرى الجزار

ولما عاد الجاحد كان الليل قدارخى سدولــه فامر لساعته بادخــال بارسفال عليه . ولما جاء بارسفال قال له فيليبو . ياحضرة السيد لقد انقذتك رغما عنك من بين يدي مراد الذي لا يزال يطلبك من الجزار مدعيا انك اسيره لكي يذيقك من العذاب اشكالا والوانا

ولماذا تنتصر لي مدافعا عني

ـــ لانك ضابط فرنساوي وقد كنت نظيرك منتظما في سلك الجيش الفرنساوي . وان انت ابرزت علي الحكم بكل تجرد وانصاف علمت اني لا ازال فرنساويا بدون ... ولكن ما لنا ولهذا الكلام الفارغ ... فانا آتيك باخبار من الفتاة التي يهمــك امرهــا . واعلم ان الخطر لا يتهدد حياتها لان السم كان سريع التأثير بجرعات قليلة ولذلك لم تمت منه . وان مرادا نسيبها الشرس الاخلاق ابدى لها لطفا لم يكن معهودا فيه فاوعز الى رجال الباشا ان يعتنوا بها اعتناء شديدا فقال له رايموند بصوت مضطرب . شكرا لك

ومد يده بغير انتباه يريد مصافحة يد الجاحد الا ان فيليبو ارتد الى الوراء متبسمــا تبسما مرا وسألــه الضابط الفرنساوي قائلا له ما اسمك

ـــ اسمي رايموند بارسفال

ـــ اتريد ان تقسم بشرفك انك تكون اسيري وتقيــم في بيتي حيث

تكون بمأمن من وصول شر اعدائك اليك وان تكون اسيرا تحت مراقبة الخفراء

— أ الى مثلك اقسم بالشرف

فامتقع وجه الجاحد عند سماعه ذلك الكلام من رايموند وقال له مغضا عينيه على القذى

فهمت ما يسنح في بالـك من الاوهام وفيمكنك والحالة هـذه ان تحلف امام الامير الاي دوغلاس ..

— وهل اقيم عنده

— نحن مقيمان معا في بيت واحد

وبعد ان اعمل بارسفال روءيته مترددا قال . ارضى بما تقترحه علي

وكان يقاسي الاما مبرحا من جرحه وشعر بان الضعف مستول عليه فاهتم به فيليبو اهتمام الاخ باخيه وسهر عليه الليل كله مراقبا هذيانه وتقلبه على سرير الاوجاع وكان من حين الى اخر يسمعه يلفظ اسمـه ويراه يبـدي علامات التأثر عند التلفظ به وكأن فيليبو كان يسر من تحمله تلك الاهانة ويعدها نوعا من التكفير

وقبل تبلج الفجر جاء القائـد الانكليزي والاضطراب بالغ منه فقال للجاحد . ياحضرة الامير الاي اني آت لاخبرك ان كل ما توهمته قد تحقق فان الفرنساويين لما علموا ان مهاجمتهم للبرج الحديدي عقيمـة صوبوا على السور الداخلي قذائف بطاريتهم الكبيرة التي وصلت اليهم موءخرا من يافا وقد فتحوا في السور المذكور ثغرة يسهل العبور منها وبعد بضع ساعات يهجمون على المدينة هجوما عظيما فهل لك ان تعطينا تعليمات جديدة ما عدا التعليمات

التي تلقيناها منك قبلا

— لا ولكن ان جريتم بموجب الخطة التي رسمتها لكم استحق بونابرت هذا المساء ان يلقبوه باسم الجزار لانه يكون قد ضحى على غير طائل فريقا كبيرا من رجاله

ولما سمع بارسفال المحاورة التي دارت بين فيليبو والانكليزي فتح عينيه ونفض عنه غبار الضعف واستعاد الى الرشد شيئا فشيئا ولكنه ما عتم ان شعر بانه قطعة من الجماد لا يستطيع التحرك · فلذعت كلمات الجاحد خوله وارتعش مريدا النهوض وانتهار فيليبو اوالتوسل اليه بان يتركه يهرب لموافاة ذويه وتخليصهم من الردى ·· ولكنه لم يقو على التلفظ بكلمة واحدة وكانت عيناه المتقدتان بنار الغضب شاخصتين الى الجاحد وعلى جبينه تقرأ البغض الشديد له

ولما فصل سدني سميث عن ذلك المكان اقبل فيليبو على رايموند وجلس الى جانبه وقال له ·لا اقوى على تجرع غصص هذه الاهانة بروءيتي اياك تبرز على الحكم قبل سماعك دفاعي عن نفسي · فهاءنذا ابوح لديك كل ما جرى

— اياك والكذب

— ان الكذب ليس من شأني ·وبعد سماعك كلامي يمكنك ان تشجبني او ان تنصفني ··

واصغى بارسفال الى كلام الجاحد الذي كان يتكلم بلهجة عنيفة وكثيرة التأثر

فقال فيليبو · ان هذا السور الداخلي كان يجب عليكم ان تهاجموه

في بدء الامر ...

—ان هذا الرأي رأي القائددومارتين

— كنت مرتابا في ذلك ... ولايخفى عليك ان هذا السورالداخلي هو النقطة الوحيدة الممكن احداث ثغرة فيها وهو الان مصون باستحكامات على شكل دائرة وعلى الثغرة تصب نيران رماتنا ولكن دون ان تؤثر بها شيئا. وسيتحققون ذلك من الهجمة الاولى بعد ان يخسروا عددا كبيرا من الرجال لان الفرنساويين لا يحجمون بسهولة ثغرة واسعة جدا ليتسع المجال في وجه المهاجمين بعد ان تفشى الاستحكامات بالقذائف

فقال بارسفال وهل تفتح المدينة

— نعم تفتح بعد ثلاثة ايام على شرط ان لا يسرع الكورسكي باصدار الاوامر بالرجوع فجأة

— ولماذا يرجع الى مصر ...

— لا يرجع الى مصر ولكن الى باريس

وعلم رايموند عند سماعه كلام فيليبو ان هذا الاخير كانت قد انتهت اليه اخبار من اوربا تمكنه من بعد النظر في الحوادث ومعرفة نتائجها معرفة تقرب من الحقيقة

— حين يبادر قائدكم بونابرت الى الهرب على جناح السرعة — وسامهد له سبيل الفرار حاملا القائد الانكليزي على اغضاء الطرف عن هربه — تلقى مقاليد القيادة الى كليبر ولان وبون وحينئذ اسرع بارسالك اليهم لتوقفهم بذاتك على الاشياء التي تفيدهم معرفتها فعند ذلك تسقط عكاء في ايديهم

فاضطرب بارسفال ونظر بدهش الى الخائن نظرة تدل على رباطة جأشه ثم قال له . ايهجس في ضميرك ان قائدنا يغادرنا امام اسوار هذه المدينة المحاضرة

— انك يافتى من عداد اولئك الجمهوريين الذين غشت على بصائرهم ستائر الغرور فانت تظن ان رئيسك من صف الرجال الذين يصفهم بلوترخوس ... لقد ساء وهمك فاعلم اني انا الذي كنت صديقه ادري اكثر من سواي ما يضمره في زوايا نفسه.. فدهاؤه متوقف عليكم انتم جنوده البواسل ولكنه يدوسكم بقدميه ليصعد الى القمة التي يطمح اليها بصره ومع ذلك فانتم ابناء الثورة الفرنساوية تطبقون الفضاء بالصياح قائلين ليحي قيصر ...

فهز رايموند منكبيه وقال . ان بغضك له يجعلك تجنح عن سواء سواء السبيل في مقالك فبونابرت وطني كبير كما هو قائد عظيم . وهو لا يغادر في صحاري الشرق الجيش الذي نفاه معه الديراكتوار مدفوعا الى ذلك بعوامل الظلم والبغض ولسوف نخرج من هذا المأزق ظافرين وقد رفع انتصارنا مقامنا حتى ان العالم برمته يعلم ما اتصف به قائدنا من الحنكة والدهاء. وانت نفسك ستتحقق هذا الامر بناء عليه فاذا بقي قائدكم هنا قضي الامر الذي كنت اخشاه وتقلص ظل امالي

اذا وقعت اسيرا في ايدي الفرنساويين طلبتك منهم بصفتك اسيرا لي ..

— وهل تنقذني... انا اكفيك مؤونة الاهتمام بهذا الامر ...

قال فيليبو هذا الكلام وجعل يتبسم تبسما معنويا ومبهما

فقال بارسفال بمرارة . تعهدت بالبقاء في الاسر ولولا ذلك ...

— انا اعلم ما يجري في صدرك ... فانت لولا تعهدك لكنت تبقى في المدينة لاجراء واجبات رجل شريف . ولكن لا يسوءك هذا الامر فانا امزق صك التعهد الذي وقعته فدونكه قطعا

— اتريد ان تبقيني اسيرا تحت مراقبة الخفراء

— انت وما تريد

— اتعجب من روءيتي مثل فيليبو ...

— احبس لسانك عن كلام الاهانة ياحضرة السيد ... فانا لا اجعلك تحت المراقبة لكي اتصدى لفرارك ولكن لانقذك من طائلة الردى ... لان مرادا لما لم يستطع اخذك من بين يدي اقام حول هذا البيت رماة فوض اليهم ان يرموك بالرصاص حالما تبدو لانظارهم ... وقد وعد من يقتلك بمبلغ طائل من المال . والان انظر ...

قال فيليبو ذلك واخذ بيده بارسفال الى جانب النافذة واراه من وراء الستائر ثلاثة رجال واقفين في الشارع وبايديهم بنادق انكليزية وهم يرصدون باب منزل فيليبو ونوافذه . وفي الحديقة ايضا كان رجال فوض اليهم امر اغتيال بارسفال . ثم ان فيليبو قال . واذا علمت كل ذلك فاني خارج لقضاء بعض الاشغال وانت ابق في منزلي ولكنك لم تعد اسيري مطلقا فانتظر رجوعي وساتيك باخبار جديدة مهمة ....

وترك فيليبو بارسفال حائرا مما سمعه منه . ولا يخفى ان ذلك الجاحد الفرنساوي الذي القته الاقدار بين صفوف الاعداء ومكنت قدمه بينهم بغضاءه الشديدة للكورسكي كان يمكنه ان يخدم بلاده . فان مثل ذلك

الحادث الخطير كان ليقرر عزمه على التوبة والارتداد

ولم يلبث رايموند ان عاد الى الافتكار ببرودة وبما سيأول اليه من امره معها ... فتمثلت له تلك الفتاة بعينيها المغمضتين ووجهها الشاحب ملقاة على الوساد في حجرتها وقد نشر الموت فوقها جناحيه . واراد رايموند ان يطرد من مخيلته تلك الروءيا الهائلة فاصغى الى اصوات المدافع وسمع اصوات بنادق متواصلة في جهة الخنادق حول السور . وحينئذ علم ان تلك الاصوات كانت نتيجة الهجوم الذي كان الجاحد ينتظره . فانقبض صدر بارسفال لانه لم يكن مع رفاقه وكانت الكلمات التي فاه بها فيليبو امامه تنتاب فكرته كأنها تهديد هائل . ولما لم يعد ادنى تعهد يربطه فكر في امر الفرار

وكانت الانقاض تملاء الارض فانسل خفية الى كوخ يوءدي الى الحديقة وابصر بستانيين مسلحين لم تكن عيونهما تفارق نوافذ مسكن فيليبو فقال بارسفال في نفسه . لا اكاد اصل الى الارض حتى تصيبني رصاصاتهما ورصاصات رفاقهما .....

اجل ان جرحه كان قد اندمل ولكنه لم يكن قادرا على استعمال ذراعه بعد وعليه فلم يكن مستطيعا مناصبته اعدائه . وسمع جلبة اتية من جهة السوق فعاد الى مخبأه وبعد قليل ابصر جماعة من الانكليز حاملين فيليبو وقد ذر بهار الموت على وجهه فذعر رايموند وصاح قائلا . وهل جرح

فاجابه فيليبو قائلا . لم اصب بجرح . وبعد ان صرف الجنود الذين جاءوا به عاد فاستأنف حديثه مع رايموند قائلا له . ان الجراح الذي عالجني يظنني مصابا بالرعن «ضربة شمس» من جراء طول بقائي على السور مع انني اصبت بضربة دبوس على رأسي . فهل تظن ان اولئك

الفرنساويين الملاعين يهجمون على السور من الجهة الضيقة غير مبالين بالنيران الحامية التي تحصدهم حصدا

قال هذا الكلام واحتدمت مواقد الغضب في فوءاده. ثم انه قال . امرت رجالي بان يحملوني اليك لكي لااموت بين الانكليز والاتراك .وان مرادا لا يتخلف ابدا عن المجيء الى هذا المكان للبطش بك... فانا اعرفه معرفة حقيقية ... وهو لا يقيم الاز في عكاء الا لاخماد جذوة انتقامه..

— وكيف يكون ذلك

— لا تخفى علي همومك فاعلم اني مع ما انا عليه من الاهتمام بامر الحصار اردت الوقوف على اخبار يهمك الاطلاع عليها وقد عرفت ان زوجتك الشابة قد فصلت هذه الليلة عن هذا المكان ...

— اصحيح انها برحت هذا المكان... اصحيح انها نجت من الموت ..

— لا تزال مريضة ولكنها خرجت من دائرة الخطر المحدق بها وقد نقلها مراد الى بيروت على متن سفينة انكليزية ويبين لي ان عمها منصورا..

— اني دار كل شيء

— لقد ارسلوها اليه لكي يفصلوها عنك ريثما يتسنى لهم الايقاع بك

فتنهد رايموند تنهد القانط وقال . فقدت وردة من يدي

— لم تفقدها بعد ...ويمكنك ان تقتفي اثرها ...ولكن يهمك قبل كل شيء الخروج من هذا المكان..وقد فوضت الى خادمي الاسكوتلندي امر النظر في مساعدتك على الفرار.

— اتخاطبني بامر الخروج...اجل اني لا ارى شيئا اشهى على قلبي منه ... ولكن اعطني اسلحة لكي انطلق ...

ــ للقذف بنفسك الى وهــدة العطب ٠٠٠ ان الحماقة من طبعنا نحن الفرنساويين ٠٠٠ لقد استدعيت الي بري خادمي وعن قريب يدخل علينا وحينئذ ننظر بسهولة على ما يجب علينا تقريره

ــ ولكني اراك تقاسي عذابا مبرحا فما بالك ٠٠٠

ــ دخلت طور الاحتضار

وكانت سحنة فيليبو قد تغيرت تغيرا ظاهرا وبدت عليها بقع زرقــاء وتكللت بالعرق البارد ولكنه تجلــد وتطلع في وجه بارسفال متبسما ثم انه قال له ٠ ان الرعن الناتج عن مثل هذه النار المحرقة يكون دائما وخيم التبعة٠

ــ دع عنك هذا المقال وهذه المخاوف ٠٠٠ فساعتني بك اعتناء شديدا وهذا المساء تشاهد ماتوريل الى جانب سريرك واوءكد لك ان قادتنا ٠٠٠٠

فعالج فيليبو النهوض بمشقــة عظيمة وقال ٠ هذا المساء ينحدر بونابرت مرتدا الى الوراء وانت وانا ننجو كلانا

ــ اتسير الى معسكرنا

ــ اسير الى الخفير

تحت القذائف

١٧

وكان نجم سعد بونابرت قد مال الى الافوال للمرة الاولى في حياته فان مقاومة عكاء جعلت بنائق صبره تنفتق ومع ما كان جونو وكليبر قد نالاه من النصر في الناصرة وجبل تابور بتمزيقهما شمل جيش دمشق طالت مدة حصار



عكاء واحبطت كل مساعي بونابرت ولما لم يبق في قوس صبر رجاله منزع طلبوا منه اصدار الاوامر بالهجوم على المدينة فامرهم بتسلق السور عند الثغرة وللحال هجم جنود القائد رامبو على الخندق وعالجوا تسلق السور ووراءهم اربعة مدافع يديرها الملازم ديجون ٠٠ واجتازت طليعة الفرنساويين الثغرة تحت نيران البنادق التي كانت تحصدها حصدا ٠ وقد تراكمت الجثث عند تلك الثغرة وسدتها في وجوه المهاجمين واضطر الجنود الى التوقف عن التقدم تحت مطر القذائف وتقطع نظامهم بين الانقاض ٠ ولم يصخ احد لاوامر القائد لان الذي اسرع الى المقدمة وامرها باستئناف الهجوم ٠ ولما وصل الى الثغرة وتحقق عجز رجاله سير اشجع المقاتلين على عقب رامبو ٠ وكان الموت يحصد جنود هذا الاخير ويكاد يفنيهم عن بكرة ابيهم

وكانت بطاريتان انكليزيتان تطلقان قذائفهما على الجدار المناوح للثغرة فتداعى بقرقعة عظيمة وغيب عن الابصار ديجون ومدفعيته ٠ فجزع لان وهجم على ذلك السور دون ان يتطلع وراءه لينظر هل كان رجاله يتبعونه فان رغبته في الموت سلبت منه كل شعور بالمسؤولية الملقاة على عاتقه وجعل يقاتل نظير اخر جندي من جنوده وقد ذهل عن اصدار الاوامر للضباط

وبينا هو على تلك الحال واذا برجل انكليزي برز له فجأة وهو اعزل وذو وجه اصفر فدنا منه وهو مضطرب وقال له ٠ ياحضرة القائد لان مر جنودك بالرجوع والا هلكتكم عن اخركم

فقال القائد الفرنساوي بغضب ٠ ان هذا الامر لا يكون ابدا ولا ننتكص على اعقابنا البتة بعد بلوغنا هذا المكان ولم يكد يفوه بهذا الكلام حتى اصابته

رصاصة فترنح واوشك ان يهوي الى الارض لو لم يسنده ذلك الرجل الانكليزي بذراعيه ويرفع صوته امرا الجنود بالانسحاب • وحمل القائد الفرنساوي الى زاوية من زوايا السور حجبته عن الابصار • فدهش لان وجعل يتفرس فيه قائلا له • من انت يا صاح •

— انا اليوزباشي بارسفال

— أأنت هو اليوزباشي بارسفال فالجميع عندنا ظنوا انك صرت من عداد الاموات

— قمت من الموت في الحين الملائم لكي انجيكم جميعكم •••• وانت يا حضرة القائد مجروح فلنذهب الى المستشفى

— لا يمكنني الذهاب قبل ان يجتاز رجالي تلك الثغرة الملعونة في هذا السور وينتظم شملهم الممزق في مكان امين

— انظر الى ديجون فقد نجا باعجوبة من الموت الذي كان يتهدده ولكن اين رامبو

واشار احد الجنود اشارة معنوية لان قائده كان عند اسفل السور مصابا بجرح يسيل منه الدم ولكنهم لقوا حمامهم عند الاستحكامات التي نصبها فيليبو

وقبل ان يجري رايموند وراء الان الذي نقلوه الى المعسكر القى نظرة اخيرة على استحكامات ذلك الموقع وقال في نفسه • ارى ما بقي علينا عمله لتذليل المصاعب القائمة في وجهنا

وبرز فوق السور جندي ارلندي فجعل يبحث بقلق ظاهر عن شخص بين الجنود الفرنساويين المنسحبين من ناحية السور • فعرفه بارسفال وقال • هذا بري • فها انذا اعطيه علامة ليذهب الى مولاه ويخبره اني نجوت ••••

والحق يقال اني لولا تدخله في امري لما كنت قد تمكنت من النجاة

وكان الانكليز من شدة حنقهم على ذلك الفار يترصدونه لاطلاق النار عليه الا ان بري منعهم عن ذلك بقوله لهم . ان بارسفال كان سائرا الى معسكر الاعداء بمهمة وهي مفاوضة بونابرت بامور تعود عليهم بالخير

وكانت جماعة من المماليك واقفة على السور فالقوا النار على بارسفال ولكنهم اخطأوه لانهم لم يكونوا يحسنون الرماية وبعد حين قصير وافى بارسفال رفيقاه الاعرابي والسوري . فسأله محمد بلهفة قائلا له وماذا جرى لمراد

فاجابه بارسفال وقال له متبسما . صبرا ياصاح فانه لايفلت من بين ايدينا دائما . . .

ولما وصل الجنود المنسحبون من عن ثغرة السور الى بونابرت وقصوا عليه انباء انفجارهم قال لهم وقد كاد صبره يفرغ . وهل اسرتم هذا الرجل الذي جئتموني به

ـ هذا هو اليوزباشي بارسفال . وقد تمكن من الفرار من عكاء بتزييه بزي جندي انكليزي

ـ جيئوني به

وخلا رايموند بالقائد بونابرت وار كان حربه مدة من الزمان قص عليهم في اثنائها الحوادث التي جرت له ووصف لهم خطة الدفاع التي توخوا الجري عليها والتي يقضي عليهم هدمها قبل عودهم الى الهجوم مرة اخرى فقال بونابرت . سحقا له من مكان ملعون هلك فيه كثيرون من نخبة رجالنا كرامبو وكافارلي وغيرهما . ولم تنته بعد من امره . . . ولم يكفنا

الاعداء حتى قام رجل فرنساوي وانضم اليهم لمقاتلتنا ... الم يقل لك شيئا عني ذلك الجاحد

— بلى ياسيدي القائد

— وماذا قال لك

— انه يبغضك بغضا شديدا وهذه هي العاطفة الوحيدة التي تحرك فؤاده

— ما لنا ولهذه العاطفة فانها شخصية ... ولكن ماذا يقول عني فانا اعرف نفسه المجبولة من طين اللؤم والشر وعليه فانا آمرك بان تقول لي ماذا يقول عني

— لا يعرفك حق المعرفة يامولاي ولا يقدر صفاتك حق قدرها

— انه ينسب الي الطمع الشديد والقساوة العظيمة

— ويزعم انك عازم على مغادرة جيش مصر وسوريا للعودة الى باريس على جناح السرعة

وكان بونابرت يخطر في المضرب ذهابا وايابا ويداه مكتوفتان وراء ظهره فالتفت بحدة الى اليوزباشي وقال له . وهب كان الامر كما يقول الا تستصوب انت خطتي

— ايهجس في ضميرك يامولاي القائد ان تهجرنا

— ان فرنسا محتاجة الي فالمصائب تتوالى عليها وعداوة القواد الذين استطيع ان اخضعهم لارادتي ....

— ولكن ماذا يحل بجيشك المصري ... وبنا طرا ....

— ان الجيش يحفظ لنا الشرق المفتوح وساترك له كليبر واما انت فساصحبك معي الى فرنسا وستكون من اركان حربي وسترى يابارسفال

بعينيك اوروبا الجديدة التي تصيرها فرنسا بقوة عزائمنا

— ياحبذا لو صحت الاحلام ليت الجمهورية العمومية تنتشر وتتناول الديار الاوروبية جميعها

— اتقول الجمهورية ٠ الم يقل لك فيليبو انى اتعمد خيانتها

— قال لي ذلـك ولكنني لم اصدقه

فهز بونابرت منكبيه وبادل بوريان الذي دخل عليه في تلك الدقيقة نظرات معنوية يصحبها التهكم ثم انـه قال ٠ فلنبادر الى مزاولة الامور المهمة ٠ لنفتح عكاء ولنعلق الجاحد وحين ارسل راسه الى مونج يخبرني هذا عما اذا كان يجد على جمجمته حدبة الرياضيات

قال هذا وبدت على وجهه علائم بغض شديد قديم لذلك الرفيق الداهية فقال له بارسفال ٠ ان فيليبو لم يعـد يخاف شيئا منا

— هل هرب

— لا ٠٠٠ الان صارت الساعة السابعة وقد غابت الشمس فلا بد من ان يكون الامير الاي قد مات

فلمعت عيني الكورسكي بوارق تأسف وحشي واخفض رأسه دون ان ينطق بكلمة واحـدة واقبل على العمل ٠٠٠ وكان رايموند مصيبا في ظنه فان الجاحد لفظ نفسه بين يدي بري بعد ان عرف منه ان الاسير تمكن من الفرار ٠ وخلف اللرد دوغلاس فيليبو في ادارة اعمال الحصار والطوبجية وكانت في يد الامير الاي الانكليزي كل الخطط التي اهمل الجاحد تعفيته اثارها ٠ وكانت جميعها كافية لاخفاق هجمات بونابرت الذي كان محولا جميع افكاره وامياله الى باريس ٠ ولم يكد نبأ وفاة الخائن ينتشر حتى بادر

مراد الى الجزار طالبا منه امرا مشدداً بقتل بارسفال وسار مسرعا الى الموضع الذي كان يظن رايموند مقيما فيه وقال لرجاله . حالما تقع اعينكم عليه ابطشوا به بغير تردد فالجزار قد ابرز الحكم عليه بالموت وكان عازما على التنقيب عن بارسفال في كل جوانب البيت غير مبال باستياء بري الذي تقلد سلاحه دفاعا عن حرمة مولاه ولكن جاء رجال عبدالله واخبروا المملوك الشاب ان الاسير اركن الى الفرار وتمكن من موافاة معسكر الفرنساويين

فقال لهم مراد . كان يجب ان تطلقوا النار عليه وتقتلوه

ـــ كان قد ابتعد عنا كثيرا حين علمنا بفراره وبصرنا به يعدو وهو متنكر بلباسه ...

ـــ وكيف تمكن من الخروج من هذا المكان

ـــ كان في الفرقة الارلندية بقيادة فيليبو وقد سار مع تلك الفرقة الى السور لرد هجمات الفرنساويين ولم يتنبه اليه احد من الخفراء الثلاثة الواقفين على السور لصد حركات الذاهبين والقادمين لانه كان مختلطا بين رفاقه الانكليز ...

وجعل مراد يطيل التفكير في ذلك الامر ثم انه تبسم تبسما غريبا وقال . يظن وردة قد ماتت او اصيبت بداء في هذا المكان وهو يتوهم انها لا تبرحه قبل انتهاء الحصار . وانا لم يبق لي عمل اجريه هنا في عكاء

لما كان في الغد خرج من عكاء منطلقا الى بيروت فلقي عند منصور استقبالا باردا مقرونا بالتعنيف وكان من جملة ما حدثه به منصور ما يأتي

ـــ ان الفتاة اعترفت بكل شيء وانت اجبت نداء الحدة والقيت

الشكوك بين قومنا . فلماذا لم تدع الحلم يدخل قلبك

— لا استطيع هذا الامر البتة ..

— يا ابني ان السنين والتجارب قد حنكتني فاعلم انه كان من المقتضي عليك قبل قتلك سعيد وصرمك حبال امال ذينك الشخصين ان تعمل الروية ثلاثة ايام على القليل

— اكان من المستطاع ان ادع ذلك المسيحي ...

— صه ... لئلا تسمعك وردة فانها لا تزال واهنة القوى ... واني والحق يقال لم اجد ادنى تعصب ديني عند هؤلاء الفرنساويين فمن الجهة الواحدة لا يبالون بالدين ومن الجهة الاخرى يحترمون جميع الاديان ولعمري ان ثورتهم المشهورة عظيمة بقوتها وعظمتها ... وقد نصحت لابراهيم ان يفاوضهم بكل عزة نفس . ولما سمع مراد ذلك القول هاج هائجه واغلظ الكلام لمنصور الشيخ . فاضطر هذا الاخير الى اسكاته باشارة تدل على السلطة وبقوله له . احبس لسانك عن الكلام فلي وحدي في هذا المكان الحق برفع الصوت ولكنني لا افعل مراعاة لـ .....

— لوردة ......

فللحال سكن ما فار من فائر مراد ونهض وقد شعر بالخجل . وكانت الفتاة عند سماعها صياح المملوك الشاب قد خرجت من غرفتها وجاءت الى الموضع الذي خرج منه الصوت . فرآها مراد واقفة على العتبة وقد بان الاصفرار على محياها من وراء البرقع المسترسل عليها وكانت مقلتاها قد جحظتا من شدة الالم وفرط الغضب فالتفتت الى منصور دون ان تخاطب مراد بشيء وقالت .

يا ابي . انا منتظرة تتميم وعدك

— نعم يا ابنتي ... استندي الى ذراعي ... لماذا نهضت من سريرك ولم تعملي بموجب ما اوصيتك به . الا ترين انك تترنحين وتكادين تهوين الى الحضيض ...

— اريد ان اعرف ... فانت قد وعدت ...

— سكني روعك فان قلب مراد يرق ... وهو يقول لنا الحقيقة كلها لانه جندي عزيز النفس وفتى يحترم شيخوختي وضعفك

ثم انه سأل المملوك بلطف قائلا له . ماذا جرى لذلك الفرنساوي ... هل مات ... فان رجوعك الى هذا المكان يجعلنا نظن انه قد هلك

وكانت وردة تصغي الى كلام عمها منتظرة جواب مراد وهي كأنها شبح من الاشباح وقد ثارت في فوءادها جميع عواطف البغض والحسد لذلك المملوك . فاراد ان يكذب ويهدم القصور الهوائية التي كانت تلك الفتاة المصرية تبنيها في مخيلتها ولكنه خشي ان يراها تموت امام عينيه . فغض طرفه وقال بصوت ابح . لا يزال حيا يرزق ... وقد تركته يهرب على رغم مني

فالقت وردة رأسها على كتف منصور وبكت من شدة الفرح لعلمها ان حبيبها رايموند لا يزال في قيد الحياة ... واخذها الشيخ وهي في حالة ضعف شديد واما مراد فانه بقي في مكانه يلوك في رأسه افكارا مختلفة ويده على قبضة حسامه وقد صمم النية على الرجوع الى عكاء ليفرغ هذه المرة من امر الضابط الفرنساوي او ليصرم حبال حياته

وكان يأمل ايضا ان الزمان يفل من حد الجزع في فوءاد وردة . فلم يكن سوى شاب مملوء من نزق الشباب والمملوكة لم تكن سوى فتاة في ربيع الحياة وقد تمكن من التجلد وقال في نفسه . ان هـذا الاصفرار ناجم عن

السم الذي تجرعتــه ... ولسوف تنسى ....

فسمع صوت منصور وراءه يقول اخطأت في وهمك فقد تركتها في حالة تهيج شديد يبوح بحبها العميق لذلك الضابط الفرنساوي ان عينيها لا تقعان عليه ابدا

ـــ لا بأس من ذلك ... فلم يبق لدينا سوى امر واحــد تأمــل الحصول عليه . وهذا الامر يخصك لاني قد بلغت الشيخوخة وفارقتني همتي ... فنحن نعود بها الى مسقط رأسنا حين تصير قادرة على السفر..

ـــ امالئك على المضي الى مصر ولكنني اخالفك في امر الذهاب الى الكرنك... لانها تجدد هناك ذكرى ذلك الفرنساوي الملعون ... وما دام هذا الرجل حيا اظل حاجزا بينه وبينها وان هو مات ـــ وعن قريب او قع به ـــ تنساه حالا ...

ـــ انها تحبه

ـــ لا تقل لي مثل هذا الكلام والا قتلتها لديك ...

ـــ ان الحب اقوى من الموت.

ولما سمع مراد ذلك الكلام لم يعد يقوى على احتمال تلــك الحال فخرج من البيت مغضبا وجعل يفكر في تدبير تهلكة يتملص بها من ذلك الضابط الفرنساوي الذي اقلق بالــه وسلب راحته .

القافلة

١٨

وكانت فصيلة من الجنودالفرنساويين مخيمة على كثيب من الرمل يتصل به من اليسار مرفأ الاسكندرية الجديد ومن اليمين طريق ابي قير وبحيرة المهدية فلما مرت قافلة بمكان قريب منهم قال احد الجنود ان هؤلاء الاتراك اللئام قد نجوا من بين ايدينا . فقال له رفيقه . هذا هو قائدنا غوران وربما كان يعرف هؤلاء الاشخاص المشتبه بهم …

ولما وصل غوران خف للقائد الجندي فولافوان وقال له بوجيز الكلام . عند طلوع النهار ابصرماريول زورقا للاتراك يحاول انزال الركاب تحت المنارة ولما الفى صعوبة في ذلك المكان جاء الرأس الذي تشاهده هناك عند الموضع الذي تنقسم فيه الطريق قسمين . احدهما يؤدي الى ابي قير والاخر الى الرحمانية

— وهل فحصتم هؤلاء الركاب

— لا . لانهم ابرزوا جوازا قانونيا فهم مماليك ابراهيم بك

— ان المفاوضة جارية بيننا وبينهم لعقد محالفة

— لا ادري سبب تأثرك والداعي الى اقتفاء اثار هؤلاء الاشخاص

— اعلم ان غوربي … توهم انه رأى وعرف …

— من عرف … مالك تتردد في الكلام … تكلم ….

— وهل يوجد امرأة

ـــ المرأة

ـــ نعم ياسيدي يوجد امرأة دنفة تذكرني هيئتها وعيناها

فقاطعه ماستيك الكلام قائلا . انك مخطئ موقع الصواب فهذه المرأة نحيلة الجسم معتلة ترف فوقها اجنحة الحمام واما تلك المرأة فقد كانت تصعر خدها تيها وكانت مدمجة المفاصل قوية الاساطين وثيقة الاركان

فعلت وجه الضابط الحمرة وقال . أتقول ان هذه المرأة هي وردة .. ذلك مستحيل .. فقال غوربي مو كذا . هي وردة بعينها ولا يوجد في الشرق كله ند لتلك الفتاة المصرية . ولو كان اليوزباشي ابصرها لكان عرفها لساعته

فقال غوران . ان اليوزباشي سار منذ ثلاثة ايام الى الاسكندرية لقضاء مهمة للقائد الاكبر وسيعود الى هذا المكان قبل عودة الليل فيجب اذن ابقاء هؤلاء الاشخاص المشتبه بهم في حوزتنا ...

فقال فولافوان . ان معاملتنا لهم على هذه الصورة تعتبر استبدادية وانت تعلم ان بونابرت لا يتساهل عند رؤيته مثل هذه الامور

ـــ ولكن يمكننا ان نقنعهم بالبقاء عندنا باعذار شتى ريثما يعود اليوزباشي

ـــ لا يمكننا اجراء هذا الامر قبل ان نعرف الجهة التي انطلقوا اليها

فقال ماستيك . ها هم قادمون الينا فلا تتحركوا

ولما قال هذا الكلام التفتوا فابصروا فرسانا قادمين اليهم من ناحية كثيب الرمل وقال غوربي . انهم اتون بانتظام كأنهم من رجال نلسون اهلكه الله

وحين وقعت انظار الفرسان على جنود الفرنساويين ترددوا في التقدم ولكنهم لم يروا لهم بدا من الدنو منهم وكانت قافلة اولئك الفرسان مؤلفة من مملوك مدجج بالاسلحة يسير في المقدمة ووراءه اربعة فرسان شاكي

السلاح ثم امرأة مقنعة والى جانبها شيخ طاعن في السن وكل منهما يستند الى الاخر وخلفهما خمسة مماليك يسيرون صامتين ومطرقين الى الارض

ولما نظر الضابط الفتاة المصرية اضطرب اذ عرف من وراء البرقع انها كانت وردة وناجى نفسه قائلا · تباً للقدر الذي صير هذه الحورية الى هذه الحال من الهزال · ثم انه التفت الى طريق الاسكندرية لعله يبصر رايموند بارسفال عائدا

واوقف ماريول تلك القافلة فهاج هائج مراد وعرض له ان يهجم على الفرنساويين مقتحما المخاطر ويبطش بهم ثم يفر بسرعة البرق الى ناحية ابي قير او الى جهة الجنوب ميمما رشيد بطريق البيضة الضيقة الفاصلة مريوتيس عن المهدية ولكنه عاد وتأمل فرأى عدد الجنود الفرنساويين كبيرا وتحقق انه لا يقدر على الايقاع بهم جميعا فاذعن للقدر ووقف امام الفرنساويين فقال غوران لفولافوان وقد اشتد اضطرابه · اسأله

فسأل فولافوان الشيخ باحترام قائلا له ما اسمك

— اسمي منصور وانا حاجب ابراهيم بك شيخ البلد

— نطقت بالصواب فان الجواز الذي بيدك يحقق صحة مقالك

ثم انه التفت الى مراد وسأله بلهجة لا تشتم منها رائحة الاحترام · وانت ما اسمك · فلم يرد مراد ان يجيبه على سوءاله لو لم يشير اليه منصور بوجوب الجواب فاجاب بعجرفة

اسمي مراد وانا نائب الامير مراد بك

فقال غوربي · اين لقيت هذا الرجل المنتشرة عليه علائم الخبث

فاجابه ماستيك · هذا هو جريح الكرنك وهو يبغضنا بغضا شديدا ·

الا تراه يرشق بمقلتيه سهام الحنق على غوران الهائم بهذه المخلوقة الحسناء

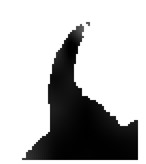
وكان فولافوان يعالج على غيرجدوى ان يحمل تلك القافلة تحط رحالها عند الحوض بيد ان الحاج جعل مراد يلج بطلب استئناف المسير وكان بونابرت قد اصدر اوامر مشددة بوجوب رعاية حرمة المماليك لانه كان يميل الى خطب مودتهم واستمالتهم اليه ولذلك اضطر غوران الى الرضى برحيل القافلة مع ما كان يجول في فؤاده من الرغبة ببقائها . وكان جميع الجنود يعلمون السبب الذي يحمل ذلك الضابط على الحاجة ببقاء تلك القافلة لانهم جميعهم كانوا يشاطرونه محبة رايموند بارسفال الذي مع هجره صفوفهم للتقيد بخدمة القائد الاكبر كان باعماله الخطيرة وجراءة مقدمه قد جر اليهم المجد والفخار . وكانوا يعلمون ايضاً بنوع مبهم ان حادثة محزنة جعلت حياة اليوزباشي هدفاً للخطر . وكانوا يسائلون نفوسهم هل وردة هذه هي المرأة السرية التي دخل بارسفال عكاء لاجلها . ولما تحركت ركاب تلك القافلة كان الجنود ينظرون اليها بخزي يمازجه شيء من القلق والاضطراب

فقال غوربي . يجول في ذهني انه يحسن بنا ان ننفذ رسولا الى الاسكندرية ليطلع رايموند على واقع الحال

فقال فولافوان . باي حق نجري هذا الامر وكيف نقول له عما خامرنا من الظنون

— بناء عليه يمكننا ان ننتظر قدوم اليوزباشي عند المساء فنخبره كل شيء ويبقى لدينا الوقت الكافي للحاق بهم فهم لا يقدرون ان يبعدوا كثيرا في هذه المدة القصيرة ولليوزباشي مائة وخمسون دليلا يأتمرون بامره

فقال غوران . لا يعودون على اعقابهم لانهم عرفونا



ـــ كان من الممكن ايقافهم بحجة استنطاقهم عن مقتل روبين

ـــ ان ما قرره القائد ديزه لا يستطيع ماريول نقضه

ـــ وغوربي ذاته لا يمكنه نقض هذا الامر

وكان قد اثر ذلك اللقاء بمراد تأثيرا سيئا فاعمل في شاكلتي جواده المهماز الا انه لم يلبث ان غض من سيره مراعاة لمنصور الشيخ ووردة الضئيلة الجسم

ووقفت القافلة وراء انقاض قصر قيصر الروماني لتعقد مجلسا في ما ينبغي لها اجراؤه فجلست وردة على طنفسة وضعوها لها في الظل وانفرد منصور ومراد وعبدالله للمداولة فقال مراد . انها عرفت ذلك الضابط الملعون وهي تؤمل الاجتماع باليوزباشي الذي انقطعت اخباره بعد رفع الحصار عن عكا

فقال منصور . ما تظنه يمكن ان يكون حقيقيا فان صمتها والقلق البادي في عينيها يدلان على تجدد امالها واظن انه يوافق ان نأخذ زورقا ونعبر به بحيرة المهدية تضليلا للفرنساويين عن اقتفاء اثارنا

فقال عبدالله ان اليوزباشي لم يكن مع رجاله فهو اما غائب واما ميت ولو اطعناهم ووقفنا حين طلبوا منا الوقوف لكانوا اسرعوا الى البحث عنه والمجيء به الى حيث كانوا لانني لا ارتاب ابدا في انهم عرفونا

ـــ ولماذا ارادوا ان يقونا هذا المساء عند الحوض ... فلو كان اليوزباشي غائبا لما كان الضابط الشاب يتجاسر على اصدار الاوامر الجازمة.

فقال منصور . وكيف كان الامر فلسنا مع معرفتهم لنا مستهدفين للخطر فابراهيم قد انفذني الى بونابرت بمهمة خصوصية وهذه المهمة بمثابة تعويذة



تقينا شر الانس والجن وفضلا عن ذلك فهؤلاء الجنود لم يكونوا في حملة سوريا وهم لم ينظروكم الا في مصر العليا • وكيف انتهت اليهم اخبار الخصام الذي جرى بينك وبين زعيمهم في عكاء فلم يبدد ذلك الكلام غيوم الشك عن جنان مراد الذي اشار باستئناف المسير قائلا • ننام الليلة في العريش قبل ان يقطع بعد يومين فيضان النيل الطريق علينا بهدمه الحواجز واملائه الاقنية وسننجو على الاقل موقتا من شر هوءلاء الكلاب الملاعين

ومع ما كانت عليه وردة من الضعف سار تمعهم صامتة دون ان تتفوه بكلمة تذمر ووصلت القافلة الى و كانت الطريق في بعض المواضع طريق الرحمانية وعبرت قناة الاسكندرية وتوغلت في البرزخ الضيق الفاصل بين بحيرة ابي قير وبحيرة ماريوتيس صعبة المسلك تحاذي القناة وليس فيها ادنى نخلة ترد اشعة الشمس المحرقة عن المارة فشعر منصور بالاعياء ولبثت وردة صامتة وكانت تجل طرفها في تلك المستنقعات الكامن الموت فيها • والمنعكسة على صفحها رسوم اطلال القرى والابراج القديمة العهد ولما مالت الشمس الى المغيب كانت القافلة قد وصلت الى تل الجنان ومن هناك توجهت الى ناحية البيضاء سائرة على طريق سهل • وكان مراد يلتفت الى الوراء من حين الى اخر باحثا بنظره في ذلك البر الفسيح • ولما لم يكن يبصر احدا كانت السكينة تثوب اليه وتحقق انه لم يكن احد جادا وراءهم ولم يلتقوا في طريقهم باحد من جنود الفرنساويين فاطمأن بال مراد وتأكد انهم يستطيعون الوصول الى كفرسليم سالمين

ولما غير فولافوان مراكز الخفراء ابقى لديه بعض رجاله وقال لهم • من الممكن ان اليوزباشي يطلبكم عند وصوله فكونوا متهيئين لتلبية اوامره •

وقال غوربي لماستيك . تحدثني النفس انا سنسير هذه الليلة الى المعسكر اطاعة لامر حبيب تلك المصرية الحسناء . الا تذكر ما جرى في الكرنك

فقال ماستيك . عندهما اخبارشتى يرويها الواحد منهما للآخر بعد افتراقهما الطويل . والساعة الرابعة مساء عاد بارسفال الى حوض الجامع يصحبه محمد الذي لم يكن يشاء مفارقته البتة لاعتقاده ان اليوزباشي لا يلبث ان يندفع وراء مراد طالبا اغتياله وبقي صفد في سوريا يبحث عن اثار مراد التي ضل عنها في بيروت حيث كان رفيقاه قد انفذاه اليها من عكاء

فتلقاه غوران ببهجة صادقة وهتف رجال فولافوان لضابطهم القديم فاجرت هـذه المظاهرات دموع الافتخار من مقلتي بارسفال الذي لم يرد اخفاءها بل تركها تجري على خديه الشاحبين . وكان كل من غوربي وماستيك يهمس في اذن الآخر متعجبا من ذلك الهزال البادي على محيا رايموند وبينما هما يتساران قال ماربول . يعز علي وايم الله ان ارى مثل هذا الشاب الغيساني في هذه الحال المثيرة الاسف من رقدته ولعمر الحق اني لا اتردد طرفة عين عن تجريع اولئك اللئام الذين مروا بهذا المكان كؤوس الحمام مترعة الى اصبارها ....

ـــ واذا دام هيامه بتلك الظبية مدة طويلة لم نر لنا مندحة عن المجيء اليه بتلك المرأة الفتانة التي مرت بنا منذ هنيهة من الزمان ... وهي لا تزال قريبة منا ...

وقال فولافوان . ان الجواز الذي مع تلك القافلة صادر عن بيروت ... ومن المحتمل ان يكون قد جرى بينهما في سوريـا شأن من الشؤون ومن الممكن ان تكون هي نفسها ... .

— وهذا يدلنا على سبب هزالها كليهما ... هلم بنا نخبره ....

— احبس لسانك عن الكلام فان هذا الامر من خصائص الملازم وهو سيخبره ...

— عنا مراة ... انه لا يجسر ابدا على مثل هذا الامر

— لسوف تراه فاعلا ذلك وانا اراهن على تحقيق ظني ...

— بناء عليه افتح عينيك وانظر من اليوزباشي تهيجا نظير تهيج البركان

وبينا هم يتحاورون على الصورة التي بسطناها كان بارسفال يخبر غوران انه سمي يوزباشي بدلا منه . وقال له . ان بونابرت يريد ان يعرف اسمك الحقيقي ليذكره في الامر الرسمي الذي يصدره اليك

— اوءثر البقاء ملازما

— لماذا .

— لئلا انقهقر بسرعة ... فقد ولدت امير الاي ولا استعيد اسمي الا عند صيرورتي جنرالا بعد عشرين او ثلاثين سنة

— ستصيب هذه الرتبة قبل الاجل المذكور . يا ليتك تدري الاعمال الخطيرة التي يدبرها لنا زعيمنا الكبير

— لماذا يريد مغادرتنا عن قريب

فاضطرب رايموند عند سماعه سوءال غوردان والتفت اليه قائلا له بتمهيل . وماذا يجعلك تفترض ...

— قدرت هذا عند روءيتي تينك البارجتين في عرض البحر وبرحت سفن سذني سميث مياه الاسكندرية ذاهبة الى قبرس لجلب ما يعوزها من الموءونة والذخائر واخلت له الجو وان انطلاقك الى الاسكندرية .....

نعم، ياغوران ٠ انا منتظر في هذا المكان القائــد بونابرت وار كان حربه لنبحر الى فرنسا المحتاجة اليه

ـــ انا اعلم ٠٠٠ فان النكبات ٠٠٠

ـــ وان البلاد جميعها تدعو المخلص ٠٠٠ وستوافيني عن قريب ياغوران ٠ ٠٠٠ ففي ارض مصر اترك قسم من قلبي ٠٠٠

فقاطعه الملازم الكلام واحروجهه مما كان يريد اخباره اياه وقال ٠ لن الشيء بالشيء يذكر فان تلك الفتاة المصرية التي يسمونها وردة ٠٠٠

وقطع كلامه حين رأى الاصفرار يعلو وجه رئيسه ثم قــال لــه ٠ عفوا يامولاي

ـــ شكرا لك على ذكر اسمها امامي فان ذلك يريح فوءادي

ثم انه اخبره ما كان من حبــه لوردة وقنوطه ومهمته في سوريا ونجاته عند وردة والليلة التي قضاها على مقربة منها والفشل الذي تلاها واختفاء الفتاة المصرية في ظلمات لبنان

ولما راى غوران تهيجه خشي سوء العاقبة ان هو اوقفه على ما كان يعرفه عن وردة وسأله بتحذر ٠ اتريــد ان اكتب اليك اذا عثرت على وردة ٠٠ وهل تجيء ٠٠٠٠

ـــ حالا ٠٠٠ فان بونابرت لا يضنّ علي برخصة ٠٠

ـــ والمجــد الذي ينتظرك في ميادين النزال بالمانيا وايطاليا

ـــ لا ابالي بالمجد يا ابني حين يكون الحب بازائه ٠٠٠ وياليتــك تدري مقدار هذا الحب ٠ فلا شيء في الدنيا يمكنه ان يعبر عن اللذة التي اصبتها بقرب حبيبتي الفتانة ٠ ففكر غوران في نفسه قائلا ٠ انــه سيهجر



الجندية ليلحق بتلك المرأة ٠٠٠٠٠ ولذلك فانا لا اقول له شيئا عنها لان واجباتي تقضي علي بذلك

ووصل ماتوريل فقطعا حديثهما وقال ماتوريل لبارسفال ٠ هيأت عدة السفر فيمكنك ان تنزل الى البحران شئت

— وهل خالج الريب احدا في الاسكندرية

— لا

— يمكنك ان تتكلم امام غوران فانه لا يخوننا

— انا عالم ذلك ٠٠٠ ان الاميرال غانتوم تلقى انباء من بونابرت يستدعيه بها اليه بعد ثلاثة ايام

— بعد ثلاثة ايام ٠٠٠ سيكون لدينا وقت كاف — قال الملازم —

فسأله رايموند قائلا واي وقت تعني بقولك ٠

فصمت الضابط الشاب ولكن اليوزباشي قال له ٠ كان صفد يمكنه ان يرسل الي رسالة اخيرة ٠٠٠٠ اين بونابرت

— في منوفه بالدلتا ٠٠٠ واذا قال لك صفد الحكيم انها وجدت فاذا تفعل

— ابقى هنا

— اتخالف اوامر بونابرت

— ابقى برضاه

فالتفت غوران الى ماتوريل ملقيا عليه نظرة معنوية فدنا منه هذا الاخير وهمس في اذنه قائلا له ٠ اذا لم يوفق الى وجدان هذه المرأة ضالته المنشودة اختل شعوره

فحينئذ راح غودن ودتوريل يكلمانه بما يعلمانه عن وردة فقال له الطبيب برصانة . اعلم يا صاح اني منذ وطئت بقدمي تربة هذا الشرق وعاشرت فيه اهله صرت اعتقد بالقضاء والقدر مجاراة للشرقيين في اعتقادهم فوردة بنزولها في هذا المكان تريد ان تشعر بارسفال بقربها منه ولذلك يجب ان يقف على حقيقة هذا الامر

— وهل ينبغي لي ان اضعه على هذا الامر بتحذر

— لا حاجة الى التحذر في مثل هذا الموقف فالمفاجأة افضل علاج لتسكين التأثر

— — —

وجاء دتوريل وغودن بارسفال واخبراه عما يعلمانه عن وردة فلم يرياه يبتهج كثيرا كما كانا ينتظران لان الوقت كان ليلا ولكنه امر بعض رجاله باقتفاء اثر وردة ورفاقها . وقد عادت اليه السكينة التي كان يشعر بها في عكا . فقال . ان محمدا يقدر ان يكتشف اثرهم فهو ماهر جدا في هذا الامر ... يا غودن ارسل معي عشرة رجال وسننطلق بعد ساعة من الزمان .

فقال فولافون . ولماذا لا ننطلق لساعتنا

— ولكن المؤونة ... والقذائف ... والنظام الجندي ....

— كل هذا مهيأ ورجالنا مستعدون منذ وقت طويل

— وهل استدركت

— اعلم انك فرنساوي وان المرأة التي يضمونها نظير وطني يعتدون عليه ... وانه يجب الدفاع عنها .....

وقال ماريول . لا يكفي ذلك بل يجب اللحاق بمختطفيها

فاراد بارسفال الشكر لهم على مشاركتهم له في عواطفه ولكنه لم

يستطع ذلك من جراء شدة تأثره

البرج الروماني

١٩

وكانت تلك الليلة حالكة الاهاب باردة الهواء موحشة للقلوب وكانت القافلة تسير تحت جنح الدجى · فقال عبدالله اني وايم الحق لا ادري اين صرنا فيجب ان نسأل سليم عن اسم المحل الذي وصلنا اليه · وكان سليم يعرف تلك الاماكن · فقال لـه · اقتربنا من البيضاء ولم يبق لنا بيننا وبينها سوى نصف فرسخ · فعلى يميننا كوم العرب وهي بيد الفرنساويين

فقال مراد · ارى ان نقف في هذا المكان لان منصور ووردة يكادان يرزحان تحت عبء الاعياء ··· ياسليم هل تعرف في هـذا الموضع محلا يمكننا ان نلجأ اليه

— يوجد هنا بعض الانقاض على ضفة القناة

— لا يوافق هذا الموضع ··· اتعرف موضعا اخر معتزلا

— على ضفة بحيرة ماريوتيس البعيدة عنا نحو مائة خطوة يوجد البرج الافرنجي ···

— سر بنا اليه لنقضي ليلتنا فيه ·

وسارت القافلة الى الناحية التي اشار اليها سليم · وكانت تسير بحذر عظيم فقال سليم تحذروا فان القناة تفيض في هذا المكان الا تسمعوا هدير الماء

ووصلوا الى موضع فيه برج مستدير يعلوه بناء مربع • وكان ذلك البرج مبنيا على حافة القناة ولم يكن الزمان ولا فيضان الدلتا السنوي قد تمكنا من الاخناء عليه وكان ذلك البرج في عهد الرومانيين حصنا حصينا يقيم فيه الجنود للمحافظة على البرزخ وسد الطريق بين القاهرة والاسكندرية • وفي الحروب الصليبية رمم ذلك البرج وتدل الاثارات ان ذلك الترميم جرى في القرن السادس عشر • وكان البرج المذكور ملجأ ملائما لتلك القافلة فادخلوا الجياد الى الطبقة السفلى وصعدت وردة الى البناء المربع الانف الذكر يصحبها منصور الشيخ اليه

وقال الشيخ • وماذا نفعل اذا دهمنا فيضان القناة

فقال المملوك يمكننا ان نصل دائما الى كوم العرب فخيلنا متعودة عبور النيل في اعمق مواضعه • وقال مراد ليس لدينا موضع اخر نلجأ اليه افضل من هذا الموضع

وبينا القافلة تسير الى الامام سمع وقع اقدام في المياه • فقال مراد • اسرعوا بنا فان الارض تخشع تحت سنابك الخيل وكادت المياه تغمر ركابها ولما وصلوا الى اسفل البرج قذف مراد ذلك البرج باللعنة لان المياه كانت قد غمرت مدخله الواطىء وقال • لا بد لنا من دخوله مهما تصدى لنا من المصاعب

فقال له منصور • واذا نحن دخلناه لان حصرنا فيه غدا واصبحنا كاننا في احبولة الا ترى الماء يعلو بابه

فقال مراد لا بأس من ذلك فاننا نكون فيه امنين على نفوسنا اكثر مما نكون في سواه

ـــ وماذا نفعل اذا فاجأنا العدو

ـــ لا شيء يدلنا على انخصومنالا يجروا وراءنا

فاضطربت وردة عند سماعهاذلكالكلام وبعد قليل من الحين دخلت الخيل ذلك البرج وصعدت فيـــه الى مكان لا تصل اليه المياه ورقي منصور ووردة ومراد الى البناء المربع وهيأوا كل شيء للرقاد . وبعد ساعـــة من الزمان توقف المد ولكن المدخل بقي مخبأ عن الابصار ومجهولا بنوع انه لم يكن احد يستطيع الاهتـــداء الى مقرهم . فقال مراد . نقدر ان ننام براحة بال دون ان نقيم خفراء يسهرون علينا

ـــ وهب جاء الفرنساويون وراءنافماذا نفعل

ـــ ذلك مستحيل

ـــ أ انت متحقق ذلك

وكانت عينا الشيخ موجهتين الى ناحية تـل الجنان وانظار مراد وعبدالله مصوبة الى البرزخ. وكانت السكينة ناشرة اعلامها فوق ذلك الليل البهيم الا ان نورا ضئيـــلا كان يسير على مسافة ثلاثة ارباع الفرسخ بين القناة وطريق القوافل وكأن حامل ذلك النور يسير وراء اثر فقذف مراد باللعن والسباب وامر رجاله ان يحشوابنادقهم ويهيئوا اسلحتهم لانه عرف من ثيابهم بعض جنود فرنساويين كانوا يسيرون حول النور

فقال منصور . لا يدلنا شيء على انهم يجدون وراءنا ومـــن الممكن ان يكون هوءلاء الجنودعساميمما البيضاءاو كفرسليم

وقال عبـــدالله . وهب كانوايطلبوننا فان اثارنا تختفي امامهم تحت الماء ولسوف يظنون ان زورقا نقلنا من ضفة الى اخرى في البحيرة او انا ثابرنا

على المسير الى ناحية الدوار ولسوف يمرون على مقربة منا دون ان يشعروا بوجودنا

وكان النور يقترب من البرج شيئا فشيئا وصوت غوربي وفولافران يسمع اعلى من عجيج الامواج . وحين وصلوا الى شاطىء البحيرة صاح محمد بصوت يكاد يخنقه وقال . ان الاثار اختفت تحت مد البحيرة . فقال له الجاريش . وهل اموا كوم العرب

— لا ولكنهم نزلوا في احـدى الجزيرات بالبحيرة بين القناة وسـد الاسكندر

— وماذا فعلوا بجيادهم

فحار الاعرابي في امره وقال يجب الاسراع الى البيضاء وكوم العرب لتحقق مرورهم بهما

فقال رايمونـد وكاد يتمزق من الحنق . بنـاء عليه ساسبقكم انـا وماتوريل ......

فقال الطبيب . لا فائـدة من ذهابنا لان الفارين اما نزلوا في بحيرة ماريوتيس عينها واما توجهوا الى البيضا ولكن الافتراض ـ الاول يبين ـ لي مستحيلا لانهم ماذا فعلوا بخيولهم

فقال بارسفال وقد ساءه ذلك الوقوف . ساروا امامنا ولا مراء وبناء عليه فلا بد لنا من الاسراع في المسير

واصطف الجنود على شاطىء البحيرة وكان محمد يحمل المصباح ويسير بين رايموند وماتوريل والمملوك ورفاقـه ينظرون مـن اعلى البـرج حركات الفرنساويين . وكانت طريق البيضاء تتجه الى ناحية الغرب وقبل

التوغل عليها الى جهة بحيرة المهدية كان يجب ان يمر سالكها على مسافة مائة متر من البرج الروماني

وكان قلب مراد يخفق في صندوق صدره حتى يكاد يكسره وحدث ان محمدا ادار المصباح الى جهة وجه بارسفال فرآه مراد وقال بصوت يكاد الغيظ يخنقه هو · هو · بعينه · ولم يكد يلفظ تلك الكلمة حتى كان بارسفال قد استأنف مسيره مجاوزاً ملجأ وردة التي افلتت من بين يديه ولم يعد له امل باستعادتها ···

وسمع للحال صوت قوي مزق الفضاء صائحا · ياريموند ···

فقد كانت الفتاة المصرية مستندة بذراعها الى النافذة الضيقة فوق رأس المملوك المنتفض من الحنق انتفاض عصفور بلله القطر وقد عرفت حبيبها ونادت مستعينة به · فزأر مراد وقد فار فائره وهم بالايقاع بوردة ولكن منصور تصدى له ومنعه عن افراغ كأس انتقامه عليها قائلا له · افتكر بالدفاع عنها الا ترى الفرنساويين فقال المملوك ومراجل الحنق تغلي في فؤاده · اني هذه المرة ساسوق الردى الى هذا الرجل

قال هذا وتناول بندقيته ودنا من كوة صغيرة تشرف على المحل الذي فيه الفرنساويون وكان رايموند قد سمع نداء وردة فوقف وامر رجاله بالوقوف قائلا لهم · انها هناك وقد سمعت صوتها وعرفته ···· اسرعوا وتوني بزورق والا قذفت بنفسي الى الماء ··· فقال ماتوريل · ان عملك يعد من باب الحماقة فانتظر الى الصباح

— انها تبتعد عنا كثيرا

— انت مخطيء في ظنك فمحمد يحقق بان الصوت آت من محل عال

جدا فلا بد من ان يكون على مقربة منا انقاض وبناء مرتفعة تحيط بها المياه وقد ابصرها احد رجال غوران منذ بضعة ايام حين كان في هذه الارجاء للارتياد

فقال غوربي . هانذا اوقد نارا يضيء نورها ما يجاورنا من الامكنة ولم يكن الا القليل حتى جمع هو وماستيك بعض السماد والهشيم واوقد نارا انبعثت منها في بدء الامر الدخان اكثر من النور فبان لهم البرج بكل وضوح وبينا ينظرون اليه ويتفحصونه اطلقت ثلاثة عيارات نارية مرت بجانب رأس بارسفال لانه هو المقصود بتلك المفاجأة

فقال بارسفال . هذا اشهار حرب منظمة اخمدوا النار لئلا تدلهم علينا ولا تجدينا نفعا واياكم ان تقابلوا المثل بالمثل باطلاقكم النار الى ناحية البرج فصاح ماتوريل . الحمد لله على سلامتك يابارسفال ... فلا اكتمك اني خشيت على عقلك من الاختلال

فصافح بارسفال ماتوريل وغوران وقال لهما انا ناعم البال الان وانا آمل انه لا يمضي علي ثلاثة ايام حتى تصير وردة في حوزتي . وحينئذ التمس من بونابرت ان يأذن لي باستصحابي اياها الى فرنسا لانها فرنساوية ... ولاننا لا نترك شيئا من فتوحنا في الشرق.

فادار غوران رأسه وجرت من مقلتيه عبرات على خديه . وشعر بان اليأس يدنو منه ...

وكانت تلك الليلة طويلة الاطراف على الفريقين وكان مراد يشعر بنيران الغضب تتسعر في فؤاده وهو نظير الوحش الضاري المحصور في قفصه . وقد فكر في الانتقام بطريقة هائلة .. وعزم على الابتداء بوردة وكان منصور

راقدا من جراء ما ناله من التعب

ولم تكن تبدو على الفتاة المصرية علامة الحياة فاعتزلت في الموضع الذي خصصوه لها ولبثت صامتة صمتا وحشيا ولم تكن تلقي لها بدا من السهر وراء كوة البرج وقد شعر مراد بانها مستيقظة وقال في نفسه · غدا ينتهي كل شيء بيننا · وقبل طلوع الفجر بمدة قصيرة انحدر منصور الى حيث كان مراد مقيما وقال له · لولا تعديك هذه الليلة لكنا تمكنا من المرور بكل حرية · فانا نائب ابراهيم · واما الان فقد فقدت ذلك الحق لاننا بادأناهم باطلاق النار عليهم وهم لم يكونوا قد اعلنوا لنا العداء ولهم الحق بان يسألونا عن هويتنا

وماذا تعني بهذا الكلام

اعني بذلك اني انا وحدي في هذا الموضع نائب شيخ البلد ولي وحدي دون سواي الحق باصدار الاوامر وقلبي لا يرهب المنية وان هم ارادوا خطف وردة منا بالقوة امرتك بالدفاع عنا ولكنني انهيك عن اتيان امر من الامور دون استشارتي فكسرت كلمات منصور التي نطقها بثبات وسكينة عجرفة مراد وحدته فقال · اطيعك في كل شيء ما عدا تسليم وردة لهؤلاء الكلاب

— ان المسألة لا تتعلق بتسليمنا على هذا الشرط ولكن خفف من حدتك ومن حبك ··· ولما تبلج الفجر كشف ستار الظلمة عن موقف الفريقين فكان المماليك مستترين وراء جدران البرج وامنين شر هجوم الفرنساويين عليهم لان هدم ذلك البرج كان يقتضي مدافع كبيرة وفضلا عن ذلك فان وجود وردة فيه كان له بمثابة ترس متين · ولم يكونوا يخشون شيئا الا من نفاذ المؤونة التي لديهم والتي لم تكن تكفيهم اكثر من يومين وبناء عليه

كان ينبغي لهم قبل الوصول الى تلك الحال ان يدبروا لهم وسيلة ينجون بها
وكان رجال بارسفال نازلين في البرزخ وكانوا يمكنهم ان يعتمدوا على مراكز البيضاء وكوم العرب في دفع غارات الوطنيين عنهم . وكان فولافوان اغتنم الفرصة من ذلك الليل البهيم واقام استحكاما يسد كثيب الرمل الذي يقدر ان يتصل به المحاصرون من البرج الى اليابسة . بقي لديهم افتراض هرب المماليك بطريق البحيرة على متن زمث الا ان هذا الامر لم يكن ميسورا لمراد لان بارسفال كان قد امر رجال كوم العرب ان يركبوا بعد ظهر ذلك النهار زورقا مسلحا ويقيموا في البحيرة بمكان لا يصل اليهم فيه رصاص بنادق المماليك . وعلى هذا النمط كان البرج محاطا من كل الجهات وكان الفرار منه مستحيلا

وكادت امال المماليك تتداعى في ذلك النهار الذي اشتد فيه الحر وارتكب مراد هفوة ثانية باهانته الرسول الذي انفذه اليهم رايموند بطريق الكثيب يقترح عليهم اخلاء سبيل وردة لتسير انى شاءت بخفارة منصور ورجلين من مماليكه . فعنفه منصور على عمله لانها اياه على اهانته اناسا هم تحت رحمتهم

فتجلد مراد محاذرا مس عواطف نائب ابراهيم ولبثت وردة جامدة وقد ابت تناول ادنى طعام او شراب وكانت جالسة امام الكوة وعيناها شاخصتان الى رايموند الواقف بين جنوده على مسافة مائة خطوة منها ولكنها لم يبرز من الكوة للعيان لان الحياء كان يمنعها من اتيان ذلك الامر . ولم تعد فيها الجرأة التي كانت فيها حين كانت في الكرنك ولا الجسارة التي كانت تقاوم بها مرادا حين كانت في قصر الجزار . ولما كانت مقاومتها

لعواطفها او على الاقل لابـداء اشارة خفيفة لبارسفال موءلمة جدا لها تولتها حمى اشتدت وطأتها عليها فقضت ليلة نابغية ولم يفارق منصور وسادتها وكانت تسمع حركة الزورقين اللذين طلب مجيئهما من تل الجنان يدوران حول البرج غير مبالين بتهديـد المماليـك ورصاص بنادقهم

وقال بارسفال لغوران · لا اريدان يكلفنا الاستيلاء على وردة حياة رجل واحد من رجالنا سانتظر الحين الذي يضطر فيه المماليك الى التسليم·

ــ واذا استدعاك اليه بونابرت قبل الحين المذكور ···

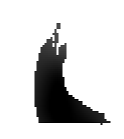
ــ ان ذلك الامر مستحيل لانه لا يمكنه ان يصل الى المرفـأ الذي نبحر منه الا بهذا البرزخ وهذه الطريق وهب وصل الى هذا المكان قبل الاجل المعين فاني ابسط لديه واقع الحال

فقال ماتوريل · واذا احـدق الخطر بحياة وردة من جراء الجوع··

ــ اتظن ·······

ــ انا في موضع رديء المناخ··· فلا ينبغي ان التعب والحمى ····

ولم يكمل الطبيب كلامه ولبث بارسفال صامتا وعوامل الجزع تتنازع فوءاده ولما اوشكت الشمس ان تغيب ارسل غوربي الى المماليـك يدعوهم الى التسليم فاسرع الرسول الى ناحية البرج وهو رافع على حربة بندقيتـه منديلا ابيض ولما لم يبق بينه وبين البرج سوى ثلاثين خطوة على التقريب صاح بصوت عال سمعه المماليك والفرنساويون في البرزخ وفي الزورقين وقال · ان قائد الجنود الفرنساويين يعلن للحامية المقيمة في البرج ان لديه طبيبا فرنسويا ماهرا مستعدا لمعالجة المرضى والجرحى حيثمـا كانوا واذا كنتـم لا تفهمون كلامي فاليكم هذه الورقة المكتوب فيها بالتركية معنى الكلام الذي القيته



على مسامعكم وهاءنذا اقنف اليكم من النافذة بالورقة المذكورة مشدودة الى حصاة مقدسة جئت بها من النيل·

ورمى غوربي الورقة بخفة وحذاقة فوقعت في البرج وبعد هنيهة من الزمان برز منصور وانحنى من كوة البرج ليخاطب الرسول الفرنساوي فقال هذا في نفسه يجب التحذر من هذا المرء لئلا يغتالني على غرة···ولكنني ارى علائم المهابة منتشرة على هيئة هذا الرجل الطويل اللحية ··· واظنه يستعد لمخاطبتي بالعربية ··· وانا لا افهم منها كلمة واحدة ··· ولكن منصورا جمع افكاره ليتذكر ما كان يعرفه من اللغة الفرنساوية وخاطب الرسول بما يأتي ·ان فرسان المماليك يشكرون للقائد الفرنساوي كرم اخلاقه ويجيبونه بانهم غير محتاجين الى علاج الطبيب الا انه توجد معهم امرأة تشعر بالآم يزداد في الليل وان منصورا يطلق له ثلاثة عيارات نارية في الفضاء كعلامة متفق عليها وحينئذ يدلى سلم من الحبال فيصعد عليها الطبيب الى البرج · واقسم الشيخ بشرفه وبحياته انه لا تمس شعرة من رأس الطبيب وانه يحافظ عليه محافظته على ولده · وقال له ايضا يمكنه ان يستصحب رجلا يحمل له المصباح

فاجاب غوربي منصورا بانه سيحمل جوابه الى القائد ثم ودعه وعاد الى بارسفال وقص عليه ما دار من الحديث بينه وبين منصور فاشتد قلق بارسفال وقال ان وردة ولا محالة مريضة جدا فيجب عليك ياماتوريل ان تنطلق لمداواتها وانا احمل لك المصباح على الطريق ···

فقال ماتوريل · ما اشد هذا الرأي · اتريد ان يبطش مراد بي وبك ···

— اني اتنكر

— لا يجدي التنكر شيئا فلا بد من ان يكونوا قد فطنوا لحيلتك قبل دخولها ذهنك وهم سيرتابون برفيقي اكثر مما سيرتابون بي وعليه فلا بد من النظر في غير هذا التدبير

وكان مرادسا كنا في ملجأه الحصين ونيران الجزع والانتقام تستعر في فوءاده والفتاة المصرية تهذي من جراء اشتداد وطأة الالم عليها . وكانت من حين الى اخر تلفظ اسم رايموند ولم يشأ الشيخ منذ ذلك الحين ان يعاكس وردة في عواطفها واميالها . وناجى نفسه قائلا . اذا طلبت مني روءيته ذهبت اليها بذاتي واتيتها به غير مبال بمراد وحنقه . واذا اضطررت حبسته في حجرته لمنعه عن الفتك بذلك المسيحي . وعند نصف الليل زاد هذيان الفتاة وبدت عليها اعراض مزعجة فاخبر منصور ابن اخيه عن حالة وردة وقال له . اريد ان استدعي الطبيب

— وهل حالة وردة تقلق البال

— انا خائف...

— فلتكن مشيئتك ... ولكن اذا جاء معه مغويها في الكرنك وعكاء قتلته لساعتي

— وكيف تظن انه يخطر على باله ...

— لو كنت في مكانه لفعلت هذا الامر

فطلب الشيخ من مراد ان يسكن روعه قائلا له . ماذا يهمك حضور هذا الرجل فانا لا افارق وسادتها

— قلت لك الشرط الوحيد الذي يمكنني الرضى به والامتثال لارادتك

فيجب الا يدخل هذا الملعون البرج واذ دخله لم يخرج منه حيا

— وعدتهم وعدا ثابتا

— ان وعدك لا يتناول هذا الرجل الذي جر الينا العار

— حسنا قلت فاستعد لاستقبال الطبيب • واطلقت ثلاثة عيارات نارية في الفضاء فلما سمعها بارسفال شعربان حملا ثقيلا يرفع عن صدره فقال لماتوريل اسرع لانقاذها ... وخذ معك غوربي • وقد كنت موقنا ان الشيخ سيدعوك لمعالجتها

— ثق باني اصف لها العلاج الذي يطفىء لهيب الحمى عنها والفظ لها الاسم الذي يشفي قلبها وانطلق الطبيب يصحبه غوربي • ولما انتهيا الى البرج وجدا مرادا وعبدالله على حبل انتظارهما فسأل مراد الطبيب وهو يشير بيده الى غوربي • من هو هذا الرجل

وقبل ان يجبه ماتوريل على سوءاله كان هو قد فحصه فحصا مدققا وعلم انه لم يكن خصمه الذي سلب منه قلب وردة واكتفى بان يدعوهما قائلا هيا • اتبعاني

وتسلق السلم المنصوبة بين الارض وكوة البرج وتبعه ماتوريل وغوربي وبقي عبدالله عند اسفل البرج وبندقيته بيده يسهر على من في البرج

وقال المملوك للطبيب • هاءنذا اسير بك الى منصور وهو يدخل بك على المريضة • وان كانت حياتك عزيزة عليك فحذار من ان تفوه امامها بذلك الاسم الملعون

— ان استقبالك لي على هذه الصورة غريب الا ان صوت الواجب هو اقوى من صوت وقاحتك وهذا من حسن الحظ

— واي حظ تعني بكلامك

— حظ وردة

ولفظ الطبيب هذه الكلمة وهو يرشق مرادا بنظرة احد من السهام ٠ وقال مراد مشيرا الى غوربي ٠ فلينتظر هذا الرجل في الطبقة السفلى من البرج ٠ فقال غوربي مهلا يا صاح فان واجباتي الجندية تقضي علي بان اكون امام الباب الذي يدخل منه رئيسي ويغلق وراءه

قال هذا الكلام بلهجة جازمة وسار وراء ماتوريل وهو ينظر يمينا وشمالا ليتبين هيئة ذلك البرج ٠ فبصر بالمماليك راقدين على الحضيض وذهب مراد الى النافذة التي كانت فوق راس عبدالله وجعل يسرّح طائر طرفه في الفضاء وفي وسط ذلك الليل الحالك

ولما دخل ماتوريل على وردة وجدها ملقاة جامدة على مضجعها وعيناها مطبقتان وكانت تلفظ الفاظا متقطعة خالية من المعنى ٠ وكان جمالها الرائع قد تحول الى اصفرار الموت فتوسل منصور الى الطبيب قائلا له بتنهد عميق انقذها وانا اعطيك ما تطلبه مني

ومما زاد في اضطراب منصور روءيته وجه الطبيب المتقع وكآبته الشديدة ٠ فسأله بخوف عظيم عن حقيقة حالها فاجابه ماتوريل ٠ اذا لم تخرج هذه الفتاة من هذا البرج الملعون قضت نحبها قبل انقضاء الغد فان مكروبات البحيرة القتالة تجهز ها على ما ابقاه فيها الحزن والاسر من الرمق

فقال منصور ٠ وهل تظل في قيد الحياة الى الصباح

— اني اقدر ان ارد لها قواها الى الصباح فقط

ـــ يا ابني . بعيشك انعشها الان وبعد ذلك نعود الى الكلام عما نجريه غدا . وحضر ماتوريل الشراب المنعش الذي جاء به وهو شراب مقو للقلب ومنوم مريح . ولم تكد وردة تتجرعه حتى شعرت بالحياة تعود اليها ففتحت عينيها وابصرت صديق بارسفال منحنيا فوقها . فتبسمت لـــه ابتسامـــة ودية وسأ لته بلطف قائلة . كيف حـــال رايموند

فتأثر الطبيب من الحب الشديد البادي في سؤال الفتاة المصرية واجابها . غدا . فتبسمت مرة ثانية وغاصت في بحور التأملات ثم نامت نوما هنيئا فقال ماتوريل . انها ستظل نائمة حتى طلوع النهار وسيعقب يقظتها سلامتها او هلاكها . فانصح لكم بان ترضوا حالا بالشروط الحبية التي يقترحها عليكم زعيمنا . فقال له منصور وقد ادهشته الاعجوبة التي اجراها بوردة امام عينيه وما هي هذه الشروط . فانا ارضى بها على علاتها

ـــ اقرأها

ففض الشيخ غلاف المكتوب واذا فيه ما يأتي

« يا حضرة الشيخ منصور المحترم . ردّ الي وردة . فاخصص حامية تخفرك لتوصلك الى بونابرت فتبسط لديـــه مقاومتكم لي وصلابة رأيي . فان هو خطأني اعدت اليكـــم الفتـــاة وصرمت حبال حياتي بيدي . »

فقال الشيخ بصوت منخفض . يالله ما هذا الحب الشديد . فانها وايم الحق تكون سعيدة بقربه لانه شجاع وعاقل

فقال ماتوريل . ان الجوع سيبلغ منكم غدا وتموت وردة بين ايديكم .

ـــ لا اريد ذلك ابدا . انتظرني ريثما اخاطب مرادا

ـــ بناء عليه لم يبق لي امل بالنجاح في مهمتي

— لا تخش شيئا من هذا القبيل فانا وحدي صاحب الامر والنهي في هذا المكان . قال هذا وخرج تاركا الطبيب الى جانب الفتاة وكان ماتوريل يرصد حركات وردة فابصر ابتسامة تجري على شفتيها المطبقتين وقال . انها جميلة للغاية وهذا هو سبب هيام رايموند بها ويا ليتني استطيع ان احمل اليه خبرا سارا عنها ... ولما طال غياب منصور خشي ماتوريل ان يكون قد اخفق مسعاه وان يكون مراد قد بقي متصلبا في رأيه . وبينا هو على تلك الحال سمع وردة تتنهد وتقول . رايموند ....

والحق يقال انها كانت تحلم فقال ماتوريل . سقيا لها من فتاة لطيفة فان شرابي المسكن سريع الفعل وهاهي الان وردية الوجه وقد نجت...

وعاد منصور وعلامات الرضى بادية على محياه فقبض على يد الطبيب ودعاه الى المسير معه قائلا له . تعال واسمع قسم مراد فقد تمكنت بعد اللتيا والتي من اقناعه بالقبول

وكان مراد واقفا وهو يكاد يهوي الى الحضيض فاعاد القسم الذي اقترحه عليه منصور على الصورة الاتية

« احلف بالقرآن الكريم بان اسلم الفرنساويين غدا عند طلوع الفجر نسيبتي وردة اذا لم يخف احد لنجدتنا من الان الى ذلك الحين وحينئذ يمكنهم ان يسيروا بها ايان شاءوا

— وماذا تعني بالنجدة المنتظرة.

— في الليلة الماضية ذهب احد مماليكنا الى بعض الوطنيين يستنهضهم للاخذ بنصرنا ومن الممكن ان يأتوا هذه الليلة ويضطروكم الى الافراج عنا

فقال ماتوريل في نفسه · حسناً فعل مراد بيوحه لي بما صمموا على اجرائه فيجب علي وانحالة هذه ان اوقف اليوزباشي بازمعان على هذا الامر

وقال منصور متوسلا · يجب ان تقدر عمل ابن اخي حق قدره وتعتبر الانتصار الذي انتصر به على ذاته فان شجاعته تفوق شجاعة البشر

— سنقدر له هذا العمل حق قدره وماذا ينبغي لنا ان نفعله لنقابلكم بالمثل

— اقسموا بشرفكم وبرايتكم ·

— حبا وكرامة

ولما تم العقد بين الفريقين وعزم ماتوريل على العودة الى رفاقه قال لمنصور · وكيف تعطوننا وردة

— تنحدر من النافذة امامكم وامامنا

— ماتلقاها عند اسفل البرج

—لا ارضى بذلك— قال مراد— فقل لزعيمكم ان يأتي بذاته ليأخذها وسيضمن قسمي لكم شهامة نفوسنا وسيرى بنفسه كيف يبر المملوك بوعده وينتصر على عواطفه

فدهش ماتوريل عند سماعه ذلك الكلام وعند رؤيته تغلب المملوك على عواطفه وحدث نفسه قائلا · هؤلاء الرجال اشداء ولسوف يسترجعون البلاد منا حين يبرحها بونابرت · وقد كنت اظن ان هذا الرجل لا هم له الا الانتقام من رايموند ولكن يدلني ظاهر الحال انه يذعن لتصاريف الاقدار · فلو قدر لبلوطرخوس ان يعرف مثل هؤلاء الناس لكان ترك لنا من اثاره القلمية ما يخلب الالباب

ثم انه ودع منصورا وانصرف وكان غوربي ينتظره عند اسفل السلم ···

ولم يبتعدا عن البرج الا القليل حتى سمعا زئيرا يحكي زئير الاسد فان مرادا كان يحرق الارم على طالعه المنكود ويتذمر من الحالة التي صار اليها فقال ماتوريل ٠ ان هذا الرجل تجلد امامي ما استطاع الى التجلد سبيلا ٠٠٠ وقد حلف بالقرآن وشهد منصور على صحة مقاله

قسم مراد

٣٠

اتحلف لي ياماتوريل بانها كانت تبتسم ٠٠٠ وانها شفيت ٠٠٠ وانك سمعتها تلفظ اسمي ٠٠٠٠ الا تريد ياصاح ان تعيد على مسمعي كل ما سمعته منها ٠٠٠ لا تغفل عن ذكر شيء ٠٠٠ فهل هزلت ٠٠٠ وهل فارقتها نضارتها ٠٠٠ وهل عرفتك حين ابصرتك ٠٠٠ وهل لفظت اسمي للحال ٠٠٠ ولكن هذا النوم ٠٠٠٠ وهذه الحمى ٠٠٠ اكاد اموت خوفا عليها ٠٠٠

— دعني اعيد على مسمعك الكلام عن وردة فانه يسر فوءادك ولكن قبل كل شيء اخبر غوران ان المماليك ينتظرون نجدة من الوطنيين

— هذا الامر لا يحتفل به ٠٠٠ ولسوف يقهقه غوران ضاحكا عند سماعه مثل هذا الكلام ٠٠٠ الم تعلم ان ذلك المملوك الذي انفذه مراد الى الوطنيين للاستنجاد بهم قد سقط اسيرا بين ايدينا ٠٠٠ ولسوف ينتظر مراد رجوعه مدة طويلة ٠٠٠ ولكن ما لنا ولهذا الامر فحدثني عن وردة

فطفق ماتوريل يقص عليه كل ما جرى له في البرج وكان بارسفال

يصغي الى كلامه وقد حلق في جوانخيل وابتعد عن كل ما يجعله لاصقا بالامور المادية . ثم انه قال له . وعدتك بلا ابرح مكاني لئلا افسد عليك تدبيرك ... ولو عرفت ان مراداسلس المقادة الى الدرجة التي رأيته فيها لكنت صحبتك ....

— ولكنت افسدت كل شيء... اظن انه اذعن مختارا لصروف الدهر ...

— ولكنني لا اريد به سوءا

— انك متناه في سلامة القلب يابارسفال ... ولكن لم ينته شيء الان فيجب علينا ان نتهيأ الى الصباح ولو كنت في مكانك لما كنت امضي الى اسفل البرج لاستقبال وردة

— ولماذا .... قال مرادا ذاته

— هذا هو الامر الذي يقلق خاطري فان نظراته وصوته حين قال انه يجب ان تحضر انت بنفسك لاخذ وردة كان فيها شيء وحشي غريب . ومن كان في موقفنا لا يأمن شر رصاصته

— ان الرصاصة التي تعنيها يقابل مرسلها بالمثل وما عدا ذلك فالقسم بالقرآن عندهم مقدس لا يمكن الحنث به

— الم تشاهد في العريش ماخلف ظنك

— ان الامر هنا يخالف الامر هناك لانه ينتهي بهلاكهم وطمس اثارهم وانا متكل على سلطة منصور عليهم

— ولكن اعلم انه من الممكن ان ينطلق عيار ناري بدون مشورة منصور يكون ذلك مقدمة لانطلاق عيارات نارية عديدة على اثره

— سترى انا سنكون عزلا

ولم يتمكن ماتوريل من اقناع بارسفال بخطأه ولكنه عالج تسكين خاطره باتكاله على شهامة منصور ذلك الشيخ الجليل وقال . يجب ان اخبرك ايضا ما اتفقنا عليه شفاها وذلك مما يغير شيئا من شروط بلاغك . ان مرادا يأبى على وردة ان تصحبها حاشية من المماليك وحينئذ يخلو لهم الجوفيسيرون الى حيث يريدون

— وكيف يستطيعون الى الخروج سبيلا فان المد يسد مدخل البرج ولا تقدر الخيول على المرور تحت العتبة .

— ان هذا الامر يعنيهم وفضلا عن ذلك فان الجزر يعقب المد غدا حين تفتح سدود الدوار

فلم يكترث بارسفال لذلك الامر المنتظر وجعل يتعلل بترديده اسم وردة

وقبل اقبال الصباح بساعة من الزمان سمعوا في البرج جلبة وضوضاء فقالوا انهم يتأهبون للرحيل وقال رايموند . لحاهم الله فانهم ايقظوا وردة وازعجوها فقال ماتوريل . ان ساعة استيقاظها لم تحن بعد لان المنوم الذي جرعتها اياه كان قويا جدا وما خلا ذلك فانها في منتهى الضعف لا تستطيع من تلقاء نفسها ان تهب من رقادها . ولما ابصر بارسفال تباشير الصباح تبدو في الافق صاح قائلا لهم . سيروا بنا

قال هـذا وسار في مقدمتهم والتفت غوران الى فولافوان وقال له تسلح انت ورجالك وسر في المؤخرة لتنجدنا عند الحاجة اليك

ووصل الضابط الى اسفل البرج وكانت السلم قد اختفت وابصروا اشبحا

في الكوة فقال لهم عبدالله . ان وردة لا تزال نائمة ولكن يمكن تسليمكم اياها

فقال له رايموند بصوت مضطرب اتينا لنأخذها فدلوا لنا السلم

ــ لا يمكنني اجراء هذا الامر فقد تلقيت الامر بان انزلها اليكم على محفة مصنوعة من سرجين من سروج الخيل وبعض الامتعة التي يتألف منها مضجع وثير لها

ــ وهل حبالك متينة

ــ لقد صنعنا هذه الحبال من وبر الابل وهي في غاية المتانة

ــ لا بأس من ذلك فافعل ما تريد ...

ولما لم يبصر ماتوريل مرادا ولا منصورا ساوره الهلع وقال لرايموند. احقق لك ان في الامر خدعة وان الشيخ يتخلف عن البروز لنا لانه يخجل من العمل الذي يكرهونه على اتيانه.

ولم يكد ماتوريل يفرغ من كلامه حتى ابصر رايموند منصورا فقال له . ها هوذا فسأل الطبيب منصورا عن وردة قائلا له . يامنصور الحكيم يسألك الطبيب عن حالة المريضة

ــ انها في غاية السكون لكنها لا تزال مستغرقة في النوم يا ابني

وكان صوت الشيخ ممزوجا بالتنهد فان ذلك الفراق كان موشكا ان يسحق قلبه وقد نسي الحاجة الشديدة التي اوحت اليه ان يرضى بتلك التضحية المؤلمة

ــ الا يزال قلبها يخفق خفوقا قويا

فاجابه مراد بصوت يكاد يخ... ان خفوقه ضعيف جدا وهي باردة كأنها

جثة . فصاح ماتوريل متعجبا . ان فعل الشراب المنوم قد طالت مدته اكثر مما كنت انتظر لكنها وحين تستيقظ تكون قد استراحت

فتوسل اليه رايموند قائلا . سنأخذها حالا الى خيمتي

فانزلت المحفة وبعد ان قبل منصور الفتاة على جبينها الذي لم يكن يشعر بشيء قال . ان جبينها باردٌ كالثلج

واراد ان يضمها مرة ثانية الى صدره فقال له مراد . لا تفعل ذلك لئلا توقظها وان اقل حركة تجعل المحفة تسقط على الارض

وصافح منصور مرادا عند سماعه تلك الكلمات الدالة على مودته لوردة وخوفه من فقدانها وقال له . انك لذو قلب كريم وهمة عالية ويحق لي ان افتخر بك

فانحنى مراد فوق المحفة واوصاهم بان يتحذروا لئلا تسقط المحفة من ذلك المكان الذي لا يقل ارتفاعه عن ثلاثين قدما .

وكانت الشمس ترسل اشعتها الذهبية على المحفة فتنير وجه وردة الاصفر ولم يكن منصور ومراد يرفعان اعينهما عنه . وكان غوران يرصد كل حركة من حركاتهما فقال لمولافوان ولرفاقه الاخرين . لا يوجد خطر يتهدد حياة قائدهم وتحققوا ان لمماليك رضوا مختارين بالتسليم

وكانت المحفة تنحدر شيئا فشيئا الى الارض عند اسفل البرج حيث كان رايموند وماتوريل ورفاقهما ينتظرونها . ولما وصلت تناولوها باعتناء عظيم والقوها على الارض فقال رايموند سرعوا بنقلها واحذروا من ان توقظوها

ولما شاهد بارسفال وجه وردة لمصفر قال . يالله ما هذا الاصفرار فبالله عليك ياماتوريل اسرع لايقاظها .

لم يكادوا يخطون بضع خطوات حتى انقلبت الوسادات التي كانت تحت رأسها وتحت جسمها فكادت وردة تسقط . فبادر ماتوريل الى امساكها ولكنه لم يلبث ان ارتعدت اوصاله فامرهم بالوقوف واراد ان يفتح اجفان الفتاة فوجد عينيها جامدتين

وصاح رايموند . ياوردة ....وكاد يجن من شدة الخوف والقلق عليها

فاجابه مراد من اعلى البرج وهو يكاد يتميز من الحنق . يمكنك ان تناديها ايها الملعون ولكنها لا تسمعك

فصاح بارسفال . قد ماتت ..وانطرح على جسمها يقبلها ويندبها

فدل غوران رجاله على المملوك وقال لهم اطلقوا النار على الخائن

فقال لهم مراد وقد راعته حركة الجنود . ولماذا تدعونني خائنا

— لانك اقسمت بالقرآن

— اقسمت بان اسلمكم وردة ..وها هي الان بين ايديكم

فاشار غوران بيده الى فولافون ورفاقه وللحال نكسوا اسلحتهم وكان منصو رينظر الى وردة والدموع تتحدر من مآقيه .وكان الضباط واقفين حول المحفة حاسري الرؤوس والجنود رافعين لاسلحة اكراما لتلك الراحلة العزيزة وجميعهم يبكون تلك الفتاة اللطيفة .وقال ماتوريل لغوران . اذا لم يبك رايموند خشيت ان يختل شعوره .ومد بارسفال يده الى وجه وردة فرفع عنه النقاب وازاح الرداء الذي كان على صدرها فشعر بجوهرة لا تزال الحرارة منتشرة عليها واراد القبض عليها ولكنه ما عتم ان عرف انها كانت مقبض خنجر اغمده مراد في قلب وردة...فاخرجه واراد اغماده في صدره ولكن ماتوريل بادر اليه بسرعة وانتزع منه تلك المدية . فانطرح بارسفال على جثة

حبيبته وجعل يبكي منتحبا ...

فقال الطبيب لقد نجا والحمدلله من خطر الجنون

وبينا هم على تلك الحال سمعوا صوت صور آتيا من ناحية البيضاء ولم يك غير القليل حتى اقبل عليهم فرسان يتقدمهم بونابرت فصاح غوران قائلا· لقد جاء بونابرت

فعند سماع رايموند هذا الاسم رفع رأسه وكانت العبرات تهمي على خديه فتجلى له حب المجد والموت ورأى في المستقبل حروبا هائلة وفتوحات مجيدة فختم تلك المأساة بقبلة حارة على شفتي تلك الفتاة التي كان يحبها محبة ما وراءها من مزيد ثم اندفع كالسهم المارق لاستقبال ذلك القائد العظيم الذي كان موشكا ان يقوده الى ساحات المجد والفخار ... وقال ماتوريل لمراد الذي كان واقفا جامدا انا نعيد هذه المرأة الى قاتلها

فمد منصور يده الى ماتوريل شاكرا له تلك المكرمة ولافظا اسم تلك التي كان مزمعا ان يدفنها هو بذاته

وقال غوران · اتريدون ان تبقوا هذا الجرم بغير عقاب

— ان اشد عقاب يمكننا ان ننزله فيه هو استبقاءوه بعدها وانا ادري انه لا يلقي شيئا في هذه الدنيا يلطف عذاباته

وسار الفرنساويون على اثر بارسفال لا ينظرون الى ما وراءهم ·

وكان الاعرابي محمد عند زاوية البرج على مسافة عشرين قدما والمملوك الذي لم تكن عيناه تفارقان ضحيته وقد صوب بندقيته على قاتل عمر ووردة·